مشاهد الفرح والترح
في شعر
المعتمد بن عباد

(دراسة موضوعية وفنية)

د/ عبد الغني محمد محمد البسيوني
الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد
في كلية اللغة العربية بالمنصورة

مُقَدِّمَة

قد يدهشنا أن نجد اسم المعتمد وذكراه في كل الكتابات تقريباً التي تشير إلى أحداث تاريخية وقعت في عصر ملوك الطوائف، فكان بحق الأمير الأندلسي الشاعر، بثقافته الشاعرة وقوته وسطوته القادرة في تصريف الأمور، وكان الرمز الكامل للوطن الإسلامي في الأندلس، فاتجهت إليه الأنظار، ربما لأنه الوحيد الذي كان قادراً على تحقيق الوحدة الأندلسية في يوم ما.

فالقارئ وهو يقرأ حوليات ذلك العصر، يشعر وكأن دويلات الأندلس تبحر في بحر متلاطم الموج متصل العواصف، وفي وسط ذلك البحر نجد المعتمد يبحر في وسط بحر الأدب الأندلسي ، ولا تكاد تصل أسماؤهم - فضلاً عن أخبار الشعراء - إلا ويتناهى إلى ذهنك هذه الكوكبة الشاعرة، من هؤلاء في بلاد الأندلس ((المعتمد بن عباد)) الذي انتشر ذكره في البلاد.

لم يكن المعتمد شاعراً, ولا يتخذً من الشعر حرفة وصناعة, ولكنه يستعمله أداة للتعبير عن مشاعـــــره وأحاسيسه بكل دقة وبراعة, وهو بذلك يشبه أبا فراس الحمداني, في مآسيه وأسره وسجنه،أما شعره فهو سهل يسير ليس فيه تصنّع أو تكلّف،ينبض بالعاطفة القوية،والنفس الشجية .
وقد ميَّز شعره بين مرحلتين،المرحلة الأولى من حياته يتقلب بين الإمارة والملك، ويتنافس الناس في مؤانسته وملازمته في قصوره، في الوقت الذي يكثر فيه من الإسراف والمجون، ومع ذلك نجد عفة فــــي النفس،وعطاء بلا حدود، فتتلمس فيه معالم الكرم الجود.

أمَّا في المرحلة الأخيرة من حياته فعاش بين الترحة واللوعة، ففيما أنت تغادر ملامح اعتزازه تطل عليك بوادر تألّمه تبوح من شغاف قلبه فتثير عليه العطف والشفقة، ومع ذلك رفض التغاضي لملكه الزائل، ونعيمه السابق، ولم يكن يستطيع حلاً لمشكلاته المستعصية، والتخلص من المآزق الحرجة التي تلاحقه، فكان الشعر حرياً باحتكاك التجارب الشعرية التي امتدت إلى سلطانه،

ولقيت من جهته قلوباً متعطشة إلى معرفة وجدانه، تجلت فيه حياة اللهو والأسر، وغذتها الإمارة والملك والقيد.

أمَّا سماته العقلية فقد تميزت بثقافة عربية صافية، لونتها بوارق من آثار البيئة الأندلسية التي تحيط به وقد تجلّى هذا كله في قريحة شعرية وقَّادة، فتَّقت له السُّبُلَ، ووسَّعَتْ له الأفق، فإذا هو يحلق في ملكه،ويبرز في درره الشعرية،يطل على عالم الحكمة الإنسانية، ليترك بعض الآثار الخالدة في حياته المتقلبة،فسلطان الحكم وذل السجن أثّرا في نفسه،وكأن الشعر تعبير عن تجاربه وتصوير لها.

فإذا ما تعمق القارئ في ديوانه، وتعرف على مراحل حياته ووجدانه، فسيجد أنه كان حقاً من شعراء بني عباد، وخلد قصائده بعد مماته بين العباد،ولعل السبب في هذا التخليد أن جل الدراسات تناولت حياته لا شعره ؛ على الرغم من أننا نلمس فيها سر عبقريته و كوامن إبداعه،ونجد فيها ما يطفئ غلة العقل الظامئ لجمال الفن.

فإذا بحثنا عن المعتمد بن عباد في دهاليز هذه الدراسات فسوف نراه يظهر لنا مكبلاً في صورة متناقضة، فمرة هو ملك أشبيلية،ومرة سجين في سجن أغمات يتذكر أيامه الهنية،ولا نقلل من قيمة هذه الدراسات السابقة،ولا من جهد مؤلفيها الأفذاذ، مثل الاعتماد في إخبار بني عباد للداني، والمعتمد بن عباد بقلم على أدهم،وهذا الكتاب قد صدر من قصور الثقافة،وركز فيه المؤلف على الجانب التاريخي،وغيرهما...،خاصة وأنه ليس بمقدور الدارس لشعره أن يغض الطرف عن أحداث عصره وملابساته، فشاعرنا زجّ بنفسه في الملك، واشتغل بالسياسة وخالط رموز الدولة وكبار القادة بالذكر؛ولكن هذه الاعتبارات جميعها تأتي على هامش النص الشعري عند دراستنا.

خاصة ونحن نعيش ثورات الربيع العربي التي اجتاحت البلاد العربية،فنتذكر المعتمد وكيف ذل بعد عز لنأخذ من ذلك الدروس والعبر، وسجن بعدما سكن القصور وعمّر الدور، ولعلنا في هذه الدراسة ننشد منهجاً نتعرف فيه على شخصيته من خلال شعره، لنتذوق مشاعر الإنسان التي يعتريها التغير تبعاً للأحداث.

فالقارئ لشعره يجد فيه ما تأنس إليه نفسه،وينجذب إليه فؤاده، يدخل أعماق حنايا مشاعرنا،،يزرع فينا عصارة الأحاسيس والروح الوطنية المثمرة والانجذاب الطبيعي لحكمه،الذي يضعك في الأحداث، ولنترك القارئ الكريم ليرى العبرة ولم يستفد منه.

وتحاول هذه الدراسة رصد مشاهد الفرح والترح في شعر المعتمد بن عباد من خلال شعره،فتتكون من مقدمة، وتمهيد، ودراسة موضوعية، وفنية، وخاتمة.

أما الدراسة الموضوعية فقد قسمتها إلى قسمين : مشاهد الفرح، ومشاهد الترح، ثم جاءت الدراسة الفنية في ختام البحث.

ونحب أن ننوه أن ((الإجازة والمعميات)) في شعر المعتمد بن عباد، فقد اختص بها بحث آخر تناول هذه الظاهرة في الشعر الأندلسي، عندما اتسع البحث على الباحث، والله الموفق.

الباحث/ عبد الغني محمد البسيوني

تمهيد

ملامح من سيرة المعتمد بن عباد

كان بنو عبّاد من ملوك الطوائف في الأندلس، تولوّا حكم اشبيلية من سنة ١٠٣١ إلى سنة ١٠٩١،، وقد أسس دولتهم أبو القاسم بن عباد، السوري الأصل،وكان آخرهم المعتمد بن عباد أمير أشبيلية الذي تولى بعد أبيه.

كانوا أهل حنكة وسياسة ودهاء وذكاء وسيرة مرضية،استطاعوا أن يوسعوا سلطانهم،حتى غَدتَ أشبيلية أقوى الإمارات الأندلسية،ولعل إقامة القاضي ابن عباد واختلاطه بملوك الأندلس، دفعه أن يستقل بأشبيلية، ولم تدركه منيته حتى ترك من بعده دولة وملكاً، تنتظم القسم الجنوبي من الأندلس،وتلاه ابنه المعتضد وكان صارماً حَديد القلب بعيد النظر،قوي الهمة، بعيد الغور، ذا دَهَاء وذكاء،استفاد من الثورات المرهقة والفتن المهلكة، فكان بحق قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية المحنة.

وجاء بعده ابنه المعتمد فمضى على ما رَسمه له أبوه، وساعده حسن الطالع في الحروب التي شنها على الخصوم التي كللت في أغلبها بالنصر، حتى عَلَتْ يده على كثير من الأمراء بالبسط، بسبب ما جلب من النصر، فأكسبه القدرة على قرطبة لتكون عاصمة لمملكته.

أما نسبه :فيرجع إلى محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل اللخمي. أبوالقاسم، الظافر المؤيد بالله المعتمد على الله. أمير أشبيلية وقرطبة وما حولهما،وينتمي بنو عباد إلى مناذرة الحيرة،وبهم يفخرون، قال ابن اللبانة الداني([1]):

---

[1]()هو محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، أبو بكر المعروف بابن اللبانة، (٥٠٧هـ . ١١١٣م) أديب أندلسي، شاعر من أهل دانية، كان من كبراء دولة ابن صمادح (محمد بن معن) توفي بمبورقة، له تصانيف، منها (مناقل الفتنة)، و(نظم السلوك في وعظ الملوك) و(سقيط الدرر ولقيط الزهر) في شر ابن عباد، (ديوان شعر)

من بني المنذرين وهو انتسابٌ زاد في فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالـــي والمعالـــي قليلةُ الأولاد([1])

وقال المعتمد:

قد مضى منا ملوكٌ شُهِرُوا شُهرةَ الشَّمس تجلَّت في الأفُقْ
نحن أبناءُ بني ماء السَّما نحوَنا تطمحُ ألحاظُ الحـــدَقْ
وإذا ما اجتمـــع الدّين لنا فحقيرٌ ما من الدّنيا افْـــترقْ ([2])

فهو من أسرة عربية عريقة،نزحت من سوريا إلى الأندلس واستوطنت في أشبيلية،ولد المعتمد في (باجة)([3]) التي كانت من أعمال إشبيلية أيام بني عباد ([4]) سنة (٤٣٢هـ)، وخلف أباه في الإمارة سنة (٤٦١ هـ) وكان فتى في الثلاثين من عمره، اتصف كأبيه بالبأس والشجاعة، والجود والسخاء واشتهرا بالقريض وحسن النظم .

ولا غرو في أن هذا المُلك الذي ورثه عن أبيه جعله يحتضن بين حناياه قلب ملك غرس فيه الرغبة والطموح، الذي سخَّر له كل طاقاته لتتنامى وثبات نفسه مع دفقات شعره، في امتداد الملك والرئاسة.

وأقام بعد أبيه دولة غدت أقوى دولة بالأندلس في عهد الطوائف، و اتسع في عهده فملك قرطبة إلى أن بلغ (بلنسية، ومرسية) وكانت تعرف باسم (تدمير)،حتى أصبح محط آمال المسلمين في رد ما سلب منهم في حروبهم مع الصليبيين.

([1]) انظر وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ابن خلكان، المعتمد بن عباد، الملك الجواد الشجاع الشاعر المرَزَّأ، د/عبد الوهاب عزام، ٨، طبع دار المعارف بمصر .

([2]) ديوان المعتمد بن عباد، ملك اشبيلية، تحقيق د/ حامد عبد المجيد، د/ احمد احمد بدوي، راجعه د/ طه حسين ١٠٩، الطبعة الرابعة، طبع دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة،(١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م).

([3]) إقليم في البرتغال حاليا.

([4]) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف احمد بن محمد المقري التلمساني، حققه د/ إحسان عباس، ١٥٩/١، طبع دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ. ١٩٦٨م .

وهكذا كان الفتي يسير في طريق المُلك كشأن أبيه، يقصده الشعراء وينالون منه النوال ولم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع ببابه من أعيان الأدب، قيل عنه:((كان له دار لا يدخل عليه أحد فيها غيرُ الشعراء،وكان يوم الاثنين من كل أسبوع))(١).

كان شابا، فارسا، شاعرا مجيدا، يحب الأدب؛ فاجتمع في بلاطه نجوم ساطعة من أرباب ونوابغ القصيد من أمثال أبي بكر بن عمار، وابن زيدون، وابن اللبانة، وابن حمديس الصقلي، وكما كان المعتمد شاعرا مجيدا، كانت زوجته اعتماد الرميكية شاعرة كذلك، وكانت إشبيلية حاضرة دولته آية في الروعة.

وقضى مع ابن عمار،زهرة شبابه، وظل أيامه في صفاء حتى ثارت العداوة بينه وبين بني ذي النون أمراء طليطلة، فقد كان كل منهم يطمع بالاستيلاء على مملكة الآخر، وكان (ألفونسو السادس) ملك قشتالة يطمع في الاستيلاء على ملك الفريقين ويتربص بهما الدوائر. فوقف ألفونسو إلى جانب بني ذي النون، فأعانوه في حرب جرت بينه وبين أخيه (سانشو).

واجه المعتمد أحداث عصره في صبر وقوة في خوض المعارك، ومجادلة خصومه في شجاعة واستبسال،وكانت للأحداث الكبرى التي مرَّت به والحروب الطاحنة التي اشتد أوارها واستعر لهيبها في الأندلس مثل :(الزلاقة، وقرطبة، ورندة، والرُّها،...وغيرها) آثارها البعيدة وصداها العميقة في نفسه، فشكّلت شعره من خلال هذه الأحداث.

تولى المعتمد الحكم بعد وفاة أبيه في سنة ستين وأربعمائة أو إحدى وستين))(٢)،وساعده على ذلك أنـــه ولد في مهاد الملك،وعاش في بيت الثراء والعز، ورأى والده فيه الاستعداد ليكون وريثه في الملك،فشجعه على ذلك ليختبر قناته في مسايرة الأمور والحكم.

---

(١) مقدمة الديوان، ٤.

(٢) انظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي ٣/٢٨٣، تحقيق إ.ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٦٧م .

وتهيأت للمعتمد ـ منذ الصغر ـ عوامل التفوق والنبوغ، فقد كان ينتمي إلى أسرة واسعة الثراء،يتمتـــع بالرعاية والولاية، ليعيش في مستوى اجتماعي وثقافي رفيع، ليكون مؤهلاً للملك، فضلا عما حباه الله به من ذكاء ونبوغ، وما فطره عليه من حب للشعر وقرضه.

كنيته : أبو القاسم،ولقبه المعتمد بالله،تزوج اعتماد وهي أم أولاده وتشتهر بالرميكية، وسبب اتصالها بالمعتمد هو كما قيل: إنّ المعتمد ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره، وقد زردت الريح النهر فقال المعتمد لابن عمار: أجز (صنع الريح من الماء زرد). فأطال الوزير الفكرة فقالت امرأة من الموجودات على ضفة النهر: أي درع لقتال لو جمد.

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ونظر إليها فإذا هي غاية في الحسن والجمال فأعجبته فسألها: أذات بعل أنت؟ قالت: لا، فتزوجها وولدت له أولاده الملوك النجباء.

ويشكك الدكتور (جبرائيل جبور) في هذه الرواية فيقول:((ولسنا نطمئن كثيراً إلى صحة الرواية التي تذهب إلى سبب اختياره لاعتماد زوجاً له كان صدفة،....والذي نراه هو أن المعتمد وابن عمار ألفا التردد إلى ذلك الوادي البهيج للتنزه والتعرض إلى الحسان، كما كان أهل اللهو في المدينة في الحجاز يفعلون في متنزه العقيق، وأنه رأى جمال هذه الفتاة، وحادثها فوقعت في قلبه،وسعى فابتاعها من سيدها،...))([1])

ومهما يكن من اختلاف فإن المعتمد أحب اعتماد حباً فيه العشق والهيام،فملكت قلبه،أحبها لأنها ـ بالنسبة له ـ خلقت من أجله،لذلك صارت لها مكانة في قلبه، وصلة شديدة بكينونته،ووشيجة لا تفصم بحياته وماضيه وحاضره وبما يأمّل في مستقبله.

([1]) الملوك الشعراء، د/ جبرائيل جبور، ٢٨٧، ٢٨٦، طبع دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ. ١٩٨١م .

ولم تعد اعتماد زوجة فحسب،بل صارت مخلوقاً ذا شخصية،تأتلف مع ذاته وتتصل بأعمق أسرار نفسيته اتصال المحب بمحبوبه ما دام حيين،فإن تطرق العدم إلى أحدهما فني الآخر،لذلك قيل عنهما:((وكان أشدهن امتلاكاً له واحتكاماً به جاريته اعتماد الرُّميكية التي اشتراها من رميك بن حجاج،وإليها زمامه وفي سبيلها أرخى عنانه ومن اسمها اشتق فتسمى بالمعتمد وتلك التي يقول فيها الوزير الشاعر محمد بن عمار:

زوجتَها من بنات الهجان رميكية لا تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير الذراع لئيم التجارب عما وخالا

ولم تكن زوجته اعتماد تشعر بنظرة استعلاء تمثل نظرة السلطان إلى أَمَته ؛بل كان حبها يهيمن عليه بكل معانيه، وعلى الرغم من ذلك كانت تشعر بأنها في الحياة أمينة عزيزة أو مطلباً بعيداً، فما نزعت نفسها إلى شيء حتى وجدته بين يديها على أحسن صوره وأتم وجوهه، فقد رأت مرة فتيات أشبيلية يملأن الجرار من النهر وفي أقدامهن أثر الطين فأحبت أن تطأ الطين كما يطأن وتحمل الجرة كما يحملن، فصنع لها المعتمد جرة من سبيك الذهب وأوطأها المسك معجونا بماء الورد والغالية))[1] ولنا وقفة مع اعتماد الزوجة.

وشاء القدر أن ينهك هذا الترف قوة الملك وأن يطمع فيه الغير المتغلب، وأنْ يعرف ذلك يوسف بن تاشفين أمير الملثمين بالمغرب فيخوض البحر إلى أشبيلية ويقضي على الملك، ثم يقود الملك المستهام أسيراً، ويقود صاحبته ونساءه وبناته وجواريه سبايا أغمات من أعماق بلاد المغرب، ولم يدرك الملك الملثم رقة الدين ولا نبل الخلق فألقى أسيره المسكين مكبلا بالحديد في غياهب السجن بين القتلة وقطاع الطريق، وترك بناته يطفن في الأسواق بما يغزلن من الصوف حافيات الأقدام باديات الأجسام معروقات العظام، وكذلك دخلن على أبيهن في سجنه صبيحة عيد النحر فزفر زفرة كاد ينفطر لها قلبه، ثم أنشأ يقول:

---

[1]() انظر نفح الطيب ١/ ٤٤٠.

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعـــة يغزلن للناس ما يملكن قطمــيرا

ومات المعتمد على الله لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٨٨ هجرية فجأة بسجن أغمات([1])،ونودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه، فكانت خلافته(ثلاثاً وعشرين سنة وثلاثة أيام)؛ وكان أسمر رقيق اللون،فقال في مدة خلافته :

حِجَجاً عشْراً وعشراً بعدهــا وثلاثين وعشرين نَسَق
أشرقتْ عشرونَ من أنْفَسِها وثـــــلاثٌ نيّرات تأتَلِقْ ([2])

نتاجه الأدبي

إن الشهرة التي أحاطت بالمعتمد في نتاجه الأدبي،كانت تنحصر في ديوان شعر (ديوان المعتمد بن عباد،وبعض الرسائل التي كان يرسلها إلى أقرانه من الملوك) ولم يجمع شعره في ديوان في حياته ؛وإنما جُمع بعد ذلك جمعه الدكتور حامد عبد المجيد،والدكتور أحمد أحمد بدوي وراجعه الدكتور طه حسين، وهذا الديوان قد أحيا شعره مرة ثانية بعد موته.

وشعره تغلغل إلى القلوب فهو في رقته جدول من جداول الأندلس،فقد أغرم بالشعر،واستطاع أن يجعل من إشبيلية مهوى الأفئدة،ومهبط الأدباء في الأندلس،ونزعت عاصمة بني عباد إلى أن تضيف التفوق الثقافي إلى ما تتمتع به من نفوذ سياسي،ويقرر المؤرخون أن المعتمد ((كان له في الأدب باع واسع ينظم وينثر،وفي أيامه نفقت سوق الأدباء،فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه))([3]) وكان شعره صورة لحياته التي عاشها يترجم بها عواطفه، ويسجل

---

[1]() قلائد العقيان ٣١.

[2]() الديوان ١٠٩.

[3]() الحلة السبراء، ابن الأبار، تحقيق د/ حسن مؤنس، ٢/ ٥٥، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣م،

فيه حسَّه ومشاعره،وهي حياة تفيض بالبهجة والسرور، يصور فيها الأحداث الكبرى التي مرّت به كشاعر سمع بها،ومن أسباب حبه للشعر:

(١) كان من أسرة شاعره يحبون الشعر ويسّرون لسماعه، فمن قبله كان أبوه القاضي محمد بن إسماعيل ((يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة،بسطاً لهم وإقامة لهممهم،ولما كان في طبعه في ذلك))([١]) فكان كأبيه وجده شاعراً صادقاً بكل ما توحي به الكلمة من معان خلق وإبداع وشاعرية.

(٢) بلغ من حبه للشعر أنه كان لا يستوزر كاتباً ولا وزيراً مالم يكن شاعراً،ولا عجب في هذا فقد تزوج جارية بشطر بيت من الشعر قد أجازته له، واستعصى ذلك على ابن عمار وزيره،وقد رأي فيه والده بادرة نبوغه للشعر ((فشجعه على أن يقرض الشعر، وعرف الابن في أبيه حبه للشعر، فاتخذه في رسائله إليه، يمدحه آناً،ويستعطفه حيناً،ويعتذر إليه مرّة ؛ ويطلب منه بعض إنعامه تارة أخرى، كما سترى، علماً منه بما للشعر من تأثير في نفس أبيه، وأنه جدير أن يبلغ به ما يريد،وأغرم المعتمد بالشعر، حتى كان يكتبه في رقعة الدعوة إذا دعا، ويستجيزه به الشعراء،وكثيراً ما كان يرسل إلى وزرائه ؛وندمائه وشعرائه ؛رسائل،بدل منثور الكلام))([٢])

---

[١]() الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني ٢:٣، تحقيق د/ إحسان عباس ن الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٧٩م، وكذلك مقدمة الديوان ٤.

[٢]() الديوان ١٤.

مشاهد الفرح والترح في شعر المعتمد بن عباد

لم تعرف بلاد الأندلس خلال حكم خلفائها حياةً يعمها الهدوء والطمأنينة، فكانت الثورات تنتابها، والقلق والاضطراب ينتشر في أرجائها، فيعصف ببلاط حكامها المتعاقبين على السلطة، ومرجع ذلك أنّ حكامها لم يكونوا أهلاً للتكاتف والتعاون ؛ وإنَّما تسامت قيمهم ارتفاعاً فكان بأسهم بينهم شديداً.

وتحت تأثير الصراعات كانت مأساة المعتمد حدثاً جللاً في البلاد،عبر عنها الشعر في نزعاته العنفوانية وتطلعاته الملكية التوسعية، فانتقل به فنه من عالم النفس الفردية إلى عالم السياسة الحُكمية، يتلوّن بألوانها ويخضع لها كل شيء؛ إلا ما انفلت عن سلطان السياسة، فيتذكر أفراح حياته وانتصاراته، ويسجّل حسراته وزفراته وزلاته، فلم يكن من السهل أنْ ينسى أيام أنسه عندما عاش أيام بؤسه، لينشأ بينهما صراع شديد، ودوي بعيد الغور في النفس بئيس، حتى استحر الصراع وأصبح ثورة عارمة ونقمة صارمة تطفو على السطح، فيتولّد من ذلك تياران جارفان يعصفان بالمعتمد بن عباد بين المُلك ونعيمه، وقهر السجن وقيوده، ومع ذلك لم ينس له القدر الاحتفاظ بالإرث الملكي عن طريق الشعر، وأنه كان ملكاً من قبيل الجنس الذين حكموا الأندلس في ذلك العهد.

رفض الاستسلام وقبل الذل والهوان مكرهاً، وجعل الشعر يعالج العواطف الإنسانية التي تتصل بنفسه المتألمة المبرحة بالهموم، طوال أيام الإحن والتخوم، ولم يجعله وقفاً على الأهواء السياسية ؛ بل امتدّ إلى النوازع الشخصية، فتوسّع في مناجاة النفس الثائرة، ذلك اللون من الحياة الجادة،الخاضعة للتقلبات في وقت الشدة، فشكلت حياة الفرح والترح، وحزازات الصدر الناتجة من وحشة السجن وذل القيد.

أضف إلى ذلك اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية في قسم كبير من البلاد في عهده، فحدّ من نشاطه التجويدي للشعر، وعلى الرغم من ذلك جعل قريحته تنطلق في شتى الاتجاهات دون تحبير أو مراجعة أو تنميق لما في الصدر من نفثات شعرية، ليعبر عن مسرات وحزازات النفس المتولدة عن آهاته، المتوهجة بأطوار مسيرة حياته المتغيرة، ليخضع كل شيء لها، ثم

تلتوي به الحال فتنقلب حياة النعيم إلى بؤس وعناء، وسوف نتناول ذلك بالتفصيل من خلال شعر المعتمد بن عباد.

أولا مشاهد الفرح

أ- في بلاط المعتضد

شبَّ المعتمد في بلاط أبيه على رخاء من العيش، وحب المغامرة في النفس، يلهو كمثل الفتيان، وينشأ على الأدب والثقافة وعلم الحسب والنسب المتوارث عن الأجداد، يتذوق مواطن الجمال، يتلمس فيه معالم الجود، الذي لونته بوارق من آثار الملك، وأضف إلى ذلك قدرته على التكيف الاجتماعي، بما لديه من سرعة البديهة والذكاء ليثير فيه كوامن الفكر والتعبير، ويشحذ القريحة ويهذب التجربة،ويدرب الطاقة الكامنة المتحفزة في النفس، فيظهر بين الشعراء كشاعر له ذكر وفضل في الملك والمجد.

وقد جلّى هذا كله قريحة شعرية وقّادة فتّقتْ ووسَّعتْ له ميادين الشباب، فإذا هو يحلق في فنه الشعري، ويطل على عالم الحكمة الإنسانية، ليترك بعض الآثار الخالدة في حياته الحصيفة المتقلبة، فإذا تركنا تلك المناحي جانباً،واتجهنا إلى ميدانه السياسي، رأيناه يسير في ركب أبيه.

فمن يقرأ شعره يجد قصائده في هذه المرحلة تجاوباً لنعيم عيشه الظليل، يستعير ممن سبقه من الشعراء غرر مدائحهم ويقلدهم فيأخذ صورهم فيجودها ويجددها ليمدح أباه بالجود والكرم.

يأيُّها الملكُ الـــــذي كفاه بخَّلتا السحـــاب
أنعمت بالبيض الكعا ب،عليَّ والخيْلِ العرابْ
وغدوت تُخشى للعقا ب،كمـــا تُرجَّى للثوابْ
برضاك أبصِرُ نائِيَ الآمالِ مــــــــــنّي ذا اقْتراب
وبطيب أيَّامي لديـــك عـــــرفتُ أيامَ الشبابْ
بشبَا سِنَانِي في الطعا ن وَحّد سيفي في الضِّرابْ
وشَبا لساني في المحا فل، بالتعـثُّر لا يُشَابْ

لا زلت تنتَعِلُ النجو مَ، وخـــدُّ قِتْلكَ في التُّرابْ (1)

يسعى المعتمد عن طريق مدائحه لأبيه التي تتميز بحرارة الانفعال، وجزالة الألفاظ، إلى إثبات سعيه للمجد، فتركزت آماله في مدحه على الجود،وراح يعلنها في هدوء ويقين وثقة في نجاح ولي نعمته في خططه الحُكمية، ويُمنّي نفسه أن يسير على الدرب، ويبسط أمامها سبل الأمل وعدم اليأس، فجعل الكرم مستمداً من أبيه ليكون شديد الاعتداد بنفسه وأبيه، ليصل بحقه في الإرث الملكي، لذلك ظهر عليه التكلف فيما يقول، وثورة عارمة على غيره من الملوك الذين لا يعترفون في حق أبيه بالكرم والجود.

إنه يعلن صراحة على لسانه حالته الملحة إلى مدح أبيه، ليملأه فخراً بين أقرانه من الملوك، فأشاد به إشادة رائعة، حيث جعله مَضْربَ المثل في الكرم والجود، فعزّ على السحاب أن تجود بمثله، ورَفَّدته الفتوح والغزوات التي حدثت في عهده المعهود، فلونت المادة الشعرية حياة أبيه ألواناً من البطولات، التي تقّوي نظم الملك، وكأنَّ لسان حاله يطغى على بقية الصفات، فقد تثقف أشياء عنه لم يكن يثقفها الشاعر الأندلسي فخضع في تفكيره لحب أبيه والنداء في المحافل.

أعجب المعتضد بشعر ابنه محمد المعتمد، فشجعه على نظم الشعر وتسجيل مناقبه، وكان أبوه من أقدر

رجال عصره سياسة ودهاء، يبسط اليد في الهبات،ويمسك بيد قوية في مملكته الأندلسية، فتعلم منه سدة الملك التي يطلبها لنفسه بعد وفاته، لهذا ملأ الشاعر ديوانه حديثاً عن آماله العظام، وآلامه الجسام، ولم يستطع في شعره الخروج عن روح الذاتية أياً كان مظهرها، فلم يفتر مدحه لأبيه وحديثه عن نفسه، وهكذا كانت عظمة أبيه في خدمة قريحته الذاتية، ويخيّل إليّ أنّ المعتمد لم يترك محمده ولا مكرمة إلا وحشدها في شعره لأبيه،فقال:

---

(1) الديوان ٣١.

أمُـعتـضداً بالله دعوةَ آمـلٍ رجـاكَ على
مستعذَب الشُّرب وهأنـا ظمآنٌ
لمنهــل وردكم وحسبيَ موقوف على وردكم
حَسْبي أفز بالـذي أمَّلت مذ كنتُ آملاً
وتحتلُّ من علياه في المنزل
الرُّحـب فجئتُ أغــذُّ السير حتّى كأنّني لإفـراط
العضب وإنــــي لما تُولي وأوليتَ شاكــرٌ
فمن شكر النَّعماءَ،نال رضا الرّبّ (١)

وقارئ هذه الأبيات يرى أن مدائحه لأبيه يعبر فيها عن خلقية أبوية ليصبغ بها شعره، لتتلاءم مع الغرض المنبثق من ضمير الشاعر وانفعالات نفسه، المتأثرة بما يوحيه وجدان إنسانيته المنحدرة من أحضان أبوّته، ليرضيه بمجموعة من الصفات المثالية التي تتسم بطابع التعميم، ومع هذا اختار الشاعر من تلك الصفات العامة ما يتناسب معه، فجعله قادراً على الذود عنه، لذلك حقق له تفوقاًًَّ بارزاً على كل ما يتحداه من الملوك، وقد قصر الصورة على الانتصار للعفو التي تتغلب على القوة ، فلا يمكن أن نتصور ممدوحه قاهراً وهو يصفه بالعدل وعلو المكانة، لذلك نجد المنطق يحكم الصورة بكل أبعادها، فطرفاها متآلفان هما الممدوح وابنه، والعلاقة محكومة بالاعتذار تارة والاعتراف بقدرة أبيه على العقاب تارة أخرى.

مما يجعلنا نقول: إن المعتضد يريد أن يعلم ابنه وليّ العهد أصول الحكم فيأخذه بالتعلم والتدريب مما ينتج عنه هذا الاعتذار، فسرعان ما صقلته ملازمة مجالس بني عباد، والخضوع لكل ما يفعله أبوه، ولم يطرأ على تغير نمط حياته المعتادة ؛ بل إن ذاكرة فكره كانت تحن بين الفينة والفينة إلى مدح أبيه لأنه مثله الأعلى في الإمارة، فتسرح مآقي بصيرته إلى أعمال أبيه فتسره،وفي الوقت نفسه يخاف من عقابه.

(١) الديوان ٣٢.

وعلى أية حال إذا بحثنا عن سبب المدح الذي شغل قريحته الشعرية، وأغرقه في بحر أمانيه، لتصبح تحت تصرّفه، فإن الشواهد المختارة من ديوانه، لتنبئك عمّا يمتاز به خلق أبيه، في سبيل مبدأ الخضوع لمبدأ السيادة الملكية، ليعشَّق الحديث عنه في الكرم، ولم يتهيب اللقاء مادام سيكون ملكاً خلفاً لأبيه بعد ميقات معلوم.

وهكذا أصبح المعتمد يتحامى في جلباب أبيه الملك، يتهيب لقاءه لعله يسمع منه ما يبغيه، فيراه يهدد ويتوعد وتغلي نفسه حقداً على أعدائه،فإذا رآه القريبون له تجمدت أطرافهم وألسنتهم وغشيتهم الذلة والانكسار، وحطمتهم بطولته وأودت بعزيمتهم الجوفاء إذا أحبوا اللقاء.

أيَا مَلِكاً يَجِلُّ عن الضَّريب ومـــن يلْتذُّ غُفران الذُّنوب
ومن في كفِّه بُؤْسَى ونُعمى تَصرَّفُ في العدوِّ وفي الحبيب
تسخُّطك الممضُ أعلَّ نفسي ومالي غيرَ عفوك مـن طَبيبِ
ولستُ بمنكر ذنبي،ولكـــــــنّني قد جئتُ في حال المُريب
فإن عاقبتني فـــجزاءُ مثلي وإن تَصفح فليسَ من الغريب
بقيتَ مؤَيداً،مـــا لاح برقٌ وما غنَّي الحمامُ على قَضيب(١)

وتمتد صورة الاعتذار في مرآة شعره، فمن الواضح أن المعتمد قد انتابه شيء ما يعكر صفو العلاقة بينه وبين أبيه،فيزداد إيغالاً في الصورة حين يوسع من إطارها فيصور هذا التلطف والتسامح منه،فهو ملك ((يَجِلُّ عن الضَّريب، ومـــن يلْتذُّ غُفران الذُّنوب)) فربط بين العلو في القدر بين أقرانه وبين عفوه ليصور عظمة أبيه،ويبني على أساسها مزاوجة أخرى وهي البؤس والنعمى،والعدو والحبيب، ليصور لنا دوافع هذا التضاد الذي ينمّ عن

(١) الديوان ٣٣، ٣٢.

اقتناع الشاعر داخلياً بما هو بصدده،فهو مدفوع إلى التضاد لإبراز جوانب القوة والضعف،ولكن جوانب الضعف في أبيه بالنسبة له قوة،ليرغب في اكتساب رضى أبيه من خلال هذا النداء الذي وجهه إلى أبيه، وهي أمور تجعل منه ملكاً عظيماً.

فممدوح المعتمد - على هذا النحو - لا نظير له حيث يمسك زمام الأمور وبيده العقاب والعفو والسخط والنعمى،والصفح والعقاب،... لذلك لا يستنكر ما صوره من أنه مؤيد ما لاح برق وما غنى الحمام على القضيب،ليحقق لرعيته من أمن ورخاء،بل ينصحهم أن يكتفوا من حياتهم بتأمل صفات أبيه فحسب فهي تكفيهم شرفاً وفخراً.

إن الأثر الذي تركه المعتضد في ابنه المعتمد يعبر عن تهيئته للملك، فيميل إلى الكثير من الاسترضاء بحيث أدت هذه الظاهرة إلى الارتياح إلى مسلك أبيه، هذا الغرض المطبوع بصفات الذات الأبوية الملكية، سرعان ما صقلته معاشرته لمجالسة أبيه، وجعلته يكبت في وجدانه نزعات ولي العهد، ويتخلق بأخلاق من يمدحه من الشعراء،فلا عجب أن يعبر عن استرضاء مسلك أبيه في حياته ليحل مكانه بعد وفاته.

مولاي أشكو إليك داءً ... أصبح قلبـــي به قريحـا
إن لم يُرِحْهُ رضاك عني ... فلست أدري لـــه مُريحـا
سُخطك قد زادني سقاماً ... فابعث إلى الرِّضا مُسيحـا
واغفِر ذنوبي ولا تضيّق ... عن حمَلِها صدركَ الفسيحا
لو صوَّر الله للمعالـــي ... جسماً لأصبحت فيه رُوحا (١)

ويستمر شاعرنا في الاعتذار لأبيه لما كان يضيق به ويجلب إليه القلق، وهذا خير دليل على أن أنه كان يميل ميلاً إلى تلقي ما يأمره أبوه من أشياء يضيق بها صدره، إنه نوع من تدريب الذات على الصبر والخضوع لكل ما يطرأ عليه من تغير في نمط حياته، فذاكرة فكره كانت تحن بين الفينة والفينة إلى إرضاء أبيه، وكأنه يسرح بذهنه فيما علق بذاكرته، وتمرح صورة

(١) الديوان ٣٣.

المعالي في مآقي بصيرته المتمثلة في مملكة أبيه، فإذا ما نزل عليه ما تقوى نفسه على احتماله، فبادر بطلب العفو والغفران، إنه نوع من هدهدات النفس القلقة التي تئن تحت صفح أبيه، ليستعطف أباه حين خرج المعتمد من مالقة مهزوماً.

سكِّن فؤادَك،لا تذهــــب بكَ الفِكَرُ ماذا يُعيد عــليك البثُّ والحـــــذَرُ
وازجُر جُفُونَك، لا ترض البكاءَ لها واصبر، فقد كنت عند الخطب تصْطَبرُ
وإن يكن قدرٌ قد عــــاق عن وطَرٍ فلا مـــردَّ لمـــا يأتي بــــه القَدَرُ
.... ([1])

إنه يصف نفسه بالانكسار ويضفي على أبيه الفخر ويعتذر له عما بدر منه،فمن منطلق هذا الشعر المتماوج بين المد والجزر أو بين الشجاعة والجبن، يبين لنا صورة المعتمد على حقيقتها،هذه الصورة التي تتجاذبه أوامر أبيه وتتنازعه عوامل الهزيمة التي لا تنجيه من غضبه الأليم، ومن تلك الأشعار التي وردت يبين لنا طابع شخصية المعتمد، المدفوعة بانجذابات النفس، إذ يجمع بين مدح أبيه والاعتذار عما بدر منه على السجية، فإذا هو في المدح قوي الجانب، وفي الهزيمة لا يقبل الانكسار، إذا عرفنا كل هذا تعرفنا على شخصية المعتمد ولأدركت هدفه الحقيقي لهذا الشعر التي جادت به قريحته.

وبينما المعتمد يتلظى فوق اضطرام أجَّجَ غضب أبيه، حيث كانت الهزيمة تتردد على مسامعه، وكأن المعتمد يسمع هذا كله، فيزيده عذاباً على عذاب، وهو يرى نظرة أبيه تنظر إليه في صراخ يستنهض الهمم، وزفرات تتصاعد من قلبه الحران،تتجسد في تصوير ألمه في تأوهات الهزيمة، لذلك نراه يقول:

وإن تكن خيبة في الدّهر واحــدةٌ فكم غزوتَ ومن أشياعِك الظَّفَرُ
إن كنت في حيرة من

([1]) الديوان ٣٦

جُرم مٌجترمٍ   فــــإنَّ عُذرك في ظلمائها قَمَرُ
كم زفرةٍ في شَغَافِ القلبِ صاعدةٍ   وعَبرةٍ من شؤون الدَّهر تنحدرُ (١)

لقد انكفأت نفس المعتمد أمام جرم الهزيمة، ليذهب في صمت الاعتذار وزفرات وأهات دفينة داخل تجاربه النفسية القاسية،الضاغطة على تفكيره العميق الصدى، المحيطة بكل أحاسيسه الرهيفة،وقد حاول جهد طاقته أن يرضي أباه،وأن يدخل السرور في قلبه المتطلع في مملكته التوسعية،لذلك نرى تأثير الوقعة لها أبلغ الأثر، وقد لفحته نار مشتعلة، فاضطر إلى حفظ ماء الوجه عند أبيه، لعله ينصرف عن لهوه، وقد أحس أن كيانه كله يتساقط أمام أبيه، كما تتساقط أشلاء النجوم السابحة في الفضاء.

فعلى الرغم مما يبدو عند المعتمد من حركة تدل على أنه موجود في مجال الملك،نجد أنه من ناحية أخرى شديد الانصهار في حريق الهزيمة،فإذا تمعنَّا في اعتذار الشاعر وهو ينادي أباه قائلاً:(وإن تكن خيبة في الدّهر واحـدةٌ،...)، فوجدناه يبدو مطبوعاً بطابع عدم التوفيق الذي عبّر عنه بخيبة الدهر، كما أننا نبصر النزعة الأبوية الملكية تريد أن تغفر ذلته، إنه يرى فيه المدافع عن مملكته،والداعي إلى التزام الحق والعدل.

إنه لا ينشغل بمناكب الحياة، لأنه يتقلب في أحضان النعيم، وينسى هموم مملكة أبيه،لأن الغنى والمتعة ومظاهر العز والسلطان، أمور سهلة المنال بالنسبة له،ولكن الذي يشغله هو إرضاء أبيه.

رضاك راحــةُ نفسي لا فُجعتُ به   فهـــو العتادُ الذي للدّهر يُدَّخرُ
هو المُـــــدامُ التي أسْلُو بها   فإذا عدمتُهـــا عَبِثَتْ في قلبي الفِكَرُ
أجَلْ،ولي راحةٌ أخرى كَلفتُ بها   نَظمُ الكُلى في القنا والهامُ تنتثرُ (٢)

وربما خاض المعتمد أعماق النفس، فأخرج دفائنها، واطلع على نفس أبيه فأخرج ما في الصدر، حيث جعل صلة الرحم المتأصلة لا يمكنها أن تذهب بها

(١) الديوان ٣٧.
(٢) الديوان ٣٩.

الأيام، إذ يفخر الشاعر منادياً معتزاً، ويخيل إليك أن صوته يفد من أعماق هاوية سحيقة، ومع أن بواعث الفخر كانت قوية لدى المعتمد ؛ إلا أنه سرعان ما يميل عن ذلك إلى التفاخر الوجداني المتصل بسيرته وآماله ومطامعه،ذاكراً مفاخر أبيه،مشيراً إلى أنه الذي يستحق المدح.

وإذا هو في لوحة الاعتذار يبدو شديد الصلة بأبيه حتى يكاد ينسي أنه يعيش في قصور الخلافة،فهو يجيد تمثل المواقف فيبدو لنا مضطرباً مفزعاً أرهقته الزلات فبدا معتذراً يطلب منه الترفق بعبده، وفي نهاية المطاف يطلب منه الصفح والغفران.

ألا يا مليكاً،ظلّ في الخَطب مفْزَعَاً ويا واحداً،قد فاق ذا الخَلقَ أجمعَا
تَرفَّق بعبـــد،وُدُّه لـــــك شيمةٌ إذا كــــان وُدٌّ من سواه تصنُّعا
لئن كنتَ عـــن جهل،فديتُك،غَافراً فكــــم عاثرٍ قالت عُلاكَ له: لَعَا
أَقِلْني،تجد عبداً شكوراً،وصارمــاً يحزُّ مـــن الأعداء ليتاً وأَخْدَعَا
علتني من السُّخط الأليم سحـــابةٌ فأَغْرِ بها ريــحَ الرِّضَا، كي تَقَشَّعاً ([1])

ويمضي المعتمد في غلوائه،ليؤكد أنه يحب أباه، فعاطفة الاعتزاز بأصله تواكب عاطفته، وبقدر علوّ قدر أبيه يعظُم فخره به، وكأن فؤاده ساحة للمدح والاعتذار، فنلاحظ معاني الفخر المقرون بالاعتذار، إذ يخيل للمرء أن ما يذكره الشاعر هو أبعد من معاني الفخر والاعتذار، فينبري له ويؤيده، لكي يصل إلى هدفه ويمتلك قدر نفسه،إذ لو استسلم المرء، لانهارت نفسه،لذلك يتخذ الفخر بعداً إنسانيا،إذ تتمثل فيه ملامح المعتمد المتشوق لعفو أبيه.

ومن هذا الوعي المتناهي الإدراك،أنضج ألفاظه الشعرية في حوار فلسفي محوره المدح والاعتذار، وأياً ما كان حال الشاعر في الاعتذار، فإنها تمثل واقع إنسان يخاف من بطش أبيه، إذ يعز عليه أن يراه متعفِّراً بالأخطاء،ويتخذها وسيلة لإظهار اعتذاره، فكان كالطائر المخذول الذي

[1] () الديوان ٤١.

يستشرف القمم العالية، ولا يزال يصيح ويعول، بعد أن أصيبت جناحاه،ليسقط بين أقدام أعماله وعلى حضيض الواقع السياسي،وقد كثر فخر المعتمد بأبيه، فإذا هو فخر أكثره إطناب، لكثرة ما عرف عن أبيه من المآثر والمفاخر، لذلك حصر فخره في أبيه ونفسه،وهو فخر صريح جرئ في كبريائه،وكثيراً ما يبطن كبرياءه،ما يغطي شيئاً من تلك المحاسن الضخمة التي أصل لها المعتمد.

ومن كل ما تقدم،يثبت لدينا أن شخصية المعتمد التي نبحث عن مقوماتها خرجت من جميع الأحداث التي مرت به، قوية العزيمة مستقيمة القول، طليقة اللسان، ملهمة القريحة الفيَّاضة بالفصيحة البليغة، واستطاعت تلك الشخصية أن تكتسب شهرة واسعة رغم أنها فضلت أن تكون مشدودة الهوى، متقربة لمسرح السياسة في حضرة أبيه،التي تكسبه شهرة أوسع وأكبر، لو تسنى إقناع نفسه بدخولها معترك السياسة، لاستطاع بهذه الأشعار أن يستل الغضب من نفس أبيه، وينال رضاه، ويجله أعظمه الإجلال والعظمة، ليعلي من قدر أبيه، ويتقي غضبه، ويتقرب إليه ليخلفه على كرسي الملك.

ب - حياة الشباب والملك:-

هذه الشخصية لم ترض بالنزر اليسير من الملك فحسب؛بل حصّن ذاته الشاعرة بمبادئ الملك الداعية التي تسليه في ريعان الشباب،وترضيه في رسم صورته الشعرية التي لا تقلل من قدره كملك مغوار شهد عليه الزمان، بل أعلى من شأنه ومقامه، حتى أصبح الشعر بلبل القصور ونديم الملوك في ساعة الحبور، وروح الألحان على أوتار الموسيقى وألسنة القيان في باحات القصور المعتضد بن عباد، وصورة لحياة شاعرنا بما فيها من مآس جسام، ولسان لهو ومجون عبر أيامه الخوالي ذوات الأفنان،... يعبر فيها عن حياته، يغمرها بكل ما فيها من باحة شعره الفتان، والناس كلهم آذان مصغية، ويده تنبسط وتجود، بما لديها من جود، حتى قال ابن بسام في مقدمة كتابه ((الذخيرة)) لا يكاد بلد منها يخلو من كتاب ماهر، وشاعر قاهر))([1]) وكأنهم ولدوا جميعاً ينظمون الشعر،ويستجيبون لداعي الجمال الذي ينساب في كل

---

[1]() الذخيرة ١/٣٣، ونفح الطيب ٣/١٥٤.

شيء يحيط بهم، يقول ابن بسام : ((قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأذكى طبع، وأعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحبير الكلام، وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمدته فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة))(1).

هذا يصدر عن وجدان حياته في ساعات اللهو واعتراف النفس بكل ما تجول به في عالمه الشخصي وكيانه الشعوري، ليعبر عن كلمة القلب في ساعات الفرح، وإشراقة الحياة والأمل، فهو شعر أشد لصوقاً

بحياة المعتمد بن عباد.

ولئن تشابهت العواطف في اعتماد المنطق العاطفي والغلو النفسي، بحيث يعبر الشاعر عن الوجود العاطفي بدلاً من الوجود العقلي، فإن العاطفة تتولد عن باعث فعلي في النفس ألم به فطربَت قريحته، فكان الشعر تفسيراً لتلك العواطف النفسية، فإذا تعمقت في أغوار شخصيته، وجدت عنده رأياً مستقلاً للتعريف بنفسه، بل نجد عنده لمحات يومض فيها عن رأيه، كلما ساقته مناسبة من المناسبات، ونظرة ثاقبة في ماهية الشباب والترف حيث يقول المعتمد:

ولقد شربتُ الرّاحَ يسطعُ نُورُها والليـــلُ قد مـدَّ
الظلامَ رِداءَ حتى تبدَّى
البــــدرُ في جوزائِه مَلِـــكاً تَنَاهـــى بهجةً وبَهاءَ
لمّا أرادَ تنزُّهاَ فـــــــــي غربه جعلَ المِظلَّة
فوقـــه الجوزَاءَ
وتناهضت زُهر النّجـــوم يحفُّه لألاؤها ؛
فاستْكَمــــل الآلاءَ
وترى الكواكبَ كالمواكِب حولَه رُفعـــــت
ثُريَّاها عليه لـــواءَ

(1) الذخيرة، لابن بسام ٢/ ١٤.

وحكيتُه في الأرض،بين مـواكبٍ وكَواعبٍ،جمعت سناً وسَنَــاءَ
إن نَشّرتْ تلك الدروعَ حنادِساً ملأت لنا هذي الكئوسَ ضيـاءَ
وإذا تغنّت هــــــذه في مِزهَرٍ لم تألُ تلك على التَّرِيك غنَاءَ ([1])

فالمعتمد حاضر الذهن في تصوير معاني الذات الإنسانية،التي ترقى بمنطوقها العفوي إلى الملهيات فهو ((بين راح يسطع نورها في ظلمة الليل، تحت أضواء البدر، يملأ الكون بهاء وبهجة، تحف به النجوم المتلألئة، كما تحف الرعية بمليكها، وهنا يعقد موازنة بين نفسه، والبدر في السماء، فهو في ملكه بين مواكب من الجند أو بين كواعب أتراب، يصدحن بأعذب الموسيقى،وأرقّ الغناء))([2]).

ولا يتكدر الشاعر من ذكر الراح، وقد عرج بطبيعة ذكرياته الشبابية على أرض الإباء، فما ترك أودية إلا وترجل بقصائده إلى أغوار الشباب،ولا جبالاً إلا وتسلق سامق قممها ليثبت أنه فارس مغوار، ولا يجد سهولاً إلا وساح في واسع بساطها الأخضر بين الأفنان، ولا أنهاراً إلا وغمر جسده برقراق مائها العذب الصافي وسط الأنهار في جنان الأندلس الغناء، حتى بدا يسمعنا من خلال رحلته في رياض شبابه على دوحة الأندلس الفيحاء، لهذا جعل لشعره معنى روحياً يعلو الألفاظ، وقد حاول قدر جهده وقوة طاقته أن يميل به إلى ذكر المحيط الذي يعيش فيه.

فهو شاعر رقيق الحس، مشرئب بمقطوعاته نحو الريّ، المغلفة بسمات الجمال والعفة والطهارة، ولعل تجواله في أصقاع الأندلس، ومناحي قرطبة، جلل قصائده بهالة من لهو الشباب، وهذا ما يعكس حقه بطبيعة المرأة الأنثوية، وإجلال هذه الأنوثة بقدر كبير من الاحترام المتبادل في حقهن في الغزل وإعطائهن فرصة إثبات وجودهن، بما لديهن من مواهب غزلية، ومن

---

[1]() الديوان ٢٨ .
[2]() الديوان ١٥.

وحي هذه العوامل مجتمعة،تجمعت لدى المعتمد أراء سديدة قرّبته من وصف المرأة بما يحفظ لها من تكريم في مخيلته كملك، وجعله يعبر بقصائده الملهمة ما تستوجبه قريحته بعديد من الدلائل النسائية،التي أسهمت في خلق مادة أدبية رفيعة القيمة، وحفظت بمداد الإعجاب والتقدير في دواوين الشعراء ممن سبقنه، مما يدفعنا إلى تقرير أن غزل المعتمد الرقيق الشهي الذي لا يخرج عن المألوف لدي الشعراء المحافظين على العلاقات الحميمة بين الرجل والمرأة،والتي لا يشوبها خدش حياء،أو إبراز ما هو في الخفاء.

والذي نريد أن نسجله للمعتمد، أنه لم يكن منصرفاً كل الانصراف إلى اللهو والمتعة، بل كانت الظروف تستوجب ذلك، وهذا يدل على أن المعتمد لم يكن بصرامة أبيه المعتضد، ومضاء عزيمته، وقوة إراداته، وشدة طموحه ودهائه وشدة طموحه، في توسيع أملاكه، وعنايته وصبره الذي فرضه على نفسه.

لذلك يمكن أن نقسم نظرة الشاعر للمرأة إلى قسمين : النظرة الأولى تتصل بالجواري لتكون موضع غزله ومناجاته وموضوعات قصصه،وهي التي تتسم بالجمال المطلق المتصف بصفات شائعة في تشابيه الشعراء، مثل الصبر على فراق الحبيب، وجزع النفس على المحب الذي غاب وجرّب عذاب الهجر وفقدان الصبر، فكان له شعر غزل قبل وبعد زوجته اعتماد، ظهر عندما قابل هذه الجواري،وهنّ جوار وزوجات كثر ((عرفنا منهن جوهرة،وسحر،ووداد،وقمر،وزوجه اعتماد أم الربيع))(1)

فقد كثر استحسان المعتمد لكثير من الجواري،واستيعاب لكل مستجدات البيئة اللواتي كثرن فيهن،فتعددت محبوباته،ومما يزيد من مكانته في الغزل أن تعددت حوله روايات تسجل الإعجاب بهن،أو بمسلكه الحضاري لديهن، وإنْ كانت فها بعض المبالغات، ولكننا لا نستطيع تجاهلها لأنها تكشف عن جوانب كثيرة من شخصية المعتمد،وظروف العصر الذي يعيش فيه.

وقد يأتي الاتفاق بين امرئ القيس والمعتمد من ناحية مستوى الثراء المادي وكونهما ابني ملك، ولكن يظل الفاصل قائماً بين شاعر يعرض تجاربه

---

(1) الديوان ١٧.

في إطار مقدمة باكياً سعياً وراء المرأة، مهما بدا مغامراً غزلياً وبين شاعر يطرح تجاربه من خلال حشرجات القلب، تبدو المرأة مُعرضة عنه على عكس الصورة المعروفة في غزل امرئ القيس،لأن المرأة في عصر المعتمد متحضرة أتيح لها من الثراء وأسباب الزينة ما لم يتح للمرأة الجاهلية،فربما كان تهالك الجواري وانتشارهن في القصور عاملاً مساعداً للمعتمد على طرح هذا التصور، فيصف طبيعة المعاناة والمكابدة التي يعيشها في لهفة على عالم المرأة،لنتبين أبعاد شخصية المعتمد الغزلية.

فقد روي الفتح عن ذخر الدولة ـ هوأحد أبناء المعتمد ـ إن المعتمد استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رواءه، وأوقد فيها أضواءه،... [1]فلما نظر إليه استدعاه وقربه، وشكا إليه من الهجران ما استغربه وأنشده وكأن المعتمد أراد أن يسجل فحولته العاطفية الفنية الأبوية، كما سجلها كبار الشعراء .

أيا نفسُ لا تجزعي واصـــــبري ... وإلا فإنّ الهوي مُتلِفُ
حبيبٌ جفاكِ وقلبٌ عصــــاكِ ... ولاحٍ لحاكِ ولا مُنصِفُ
شجونٌ مَنَعن الجفونَ الكَـرَى ... وعَوّضْنَها أدمعاً تَنْزَفُ(2)

نلمح في هذه الأبيات مقاصد حب طاهر، سامي الأهداف، نبيل الغاية، يتغذى إلهامه في تعفف ذاتي، لا تدنسه شهوة،ولا تخدشه غريزة جامحة، فإذا توغلنا في مسار المعتمد الأسري، وجدناه في بداية نظمه مقلداً من سبقه، ثم مبدعاً في التفنن التجديدي، الملوّن بمسحات زاهية الرؤى، تتلاءم مع العصر الذي يعيش فيه، تجسد الفضائل المنغمسة بفيض النبل العريق الشمائل المتوهج الأعراق.

---

(1) نفح الطيب ٥/٢٣٢.
(2) الديوان :٢١

كما نلمح في غزل المعتمد حباً مألوفاً في طبيعة المرأة، فتسمع من خلاله كلمات مشبعة بالوفاء لذلك

الإلهام، الذي استقاه من تينك العينين المشعين ببريق العطف،والحنو التقاربي الأنيس للحبيب، وعلى ذلك يستمتع مليّاً بمنع عيونه الكرى.

وقد حق لنا أن نتعرف على حقيقة تجربته الغزلية والعذاب الذي وصفه الشاعر في أجواء الرؤى العذرية، حيث جعله يواكب عذاب وحشته لغياب حبيبته، وكأنه يحكي لنا قصة حياته المليئة بالحرمان، وتأكيداً لهذا الحب، يورد الشاعر حواراً بينه وبين نفسه، يجسد فيه عذابات الفؤاد.

ونلمح أيضاً في غزل المعتمد حباً مألوفاً في طبيعة البشر، وليس عشقاً ينجرف بماديّات رخيصة يمجها التعقل وتعافها الحكمة، فيجعل الحبيبة ساحرة غرام معذبة مرهفة الإحساس، تحرمه النوم وراحة النهار، يتوجه إليها بفيض مهذب المشاعر، كما نسمع من خلاله كلمات مشبعة بالوفاء،الذي استقاه من تينك العينين المشبعتين ببريق العطف الإنساني، والحنو التقاربي الأنيس، وعلى ذلك يظهر تهيّجات الفؤاد، يقول في جارية لم يسمها

أنا في عذابٍ من فراقك نشوان من خمرِ اشتياقك
صبّ الفؤاد إلى لقـــــائك وارتشـــافك واعتناقك
لا تحسبي أني سلـــــو تُ، لما تَوالَى من فَراقِكْ
هذي جفونـــــي أقسمت لا تكتفي مـــــا لم تُلاقِك
فصلي جميل الـظنّ بي وثقـــــي فقلبي في وِثاقك([1])

---

[1]) الديوان ٢٢.

ولم يقتصر تعلق المعتمد بالغزل عند حدود حضارة عصره ؛ بل حاول أن يستجمع من معاني السابقين كل معنى جميل، فراح يصور بطولاته ومغامراته، فعرض نماذج غزلية يسجل فيها بطولاته، وكأنه يسجل فحولته الغرامية كما سجلها غيره، وعلى أية حال لا نأخذ تحوله إلى هذا السلوك الغزلي كمعيار لسلوكه الديني، خاصة أننا ما رأينا عنده تلطخاً بالفروج، خاصة في وسط الزحام الحضاري الذي يتيح له فرصة ليتأمل طابع سلوكه، وأول ما يطالعنا في حديثه عن المرأة زوجته اعتماد.

جـ - غرامياته وتجاربه الغزلية

١- اعتماد الرميكية:

الزوجة الأميرة المتربعة على سدّة الحكم، زوجة الملك المعتمد بن عباد، التي تتصل اتصالاً مباشراً بحياته، يرسم لها هالة من الإجلال من خلال قريحته الشعرية، يتمنى أن تلازمه مدى الحياة،لأنها بالنسبة له ملكة الرحمة والحنان، فكبده العشق التعب والعناء، وبدت شخصيتها شديدة الوثوق به في أغلب الأحيان، وأسبغ عليها نعمه السخية،حتى أصبحت تعيش معه عيشة مرضيه. وقد نزه شعره من الخوض في الأعراض، وعدم التهجم على حرمة الأنثى في أغلب الأحيان.

ففي غزله لزوجته (اعتماد) يطالعنا بجميل الذكريات، وأمان طيبة يتمنى أن يحياها معها في مستهل الأيام، فيصور الماضي وكأنه حلم من الأحلام، فيعرض مشاهد من طيف الخيال، ليصور طابع العلاقة الحميمة المبنية على الثقة وإرضاء جانب الحنان، وتذكر أشهى من رشفات الحبيب، فإذا هو يرضى من وصلها إقامة العهد الذي كان بينهما، محاولاً تجسيد وقع التمني ليكون حقيقة في مستهل الأيام.

وجريا على عادة الشعراء السابقين في مسألة التذكر، راح المعتمد يستعين بصورة محبوبته المستقرة في الفؤاد، حتى يسقط ما في نفسه من مشاعر متأججة تحرمه السهاد، وإن كان يدرك أن ما يكنه في داخله أكبر مما يظهره وهذا ما نلاحظه من خلال تلك الأشعار،فيكتفي بالسلام المقرون بالمشاعر

الرقيقة المغلف بالعاطفة والحنان، وعلى قدر الدموع والسّهاد، يقر بعجزه عن الوصال، حيث فشل في إخفاء المشاعر أو أن يتحكم فيها في مكامن الأسرار.

أغائبة الشّخص عن ناظـري وحـــــاضرةً في صميم الفؤادِ
عليك ســـــلامٌ بقدر الشّجـو ن،ودمع الشُّؤون،وقدر السُّهادِ
تملّكـــــتِ منّيَ صَعْبَ المَرا م،وصادَفْـــتِ وُدِّيَ سَهْلَ القيادِ
مُراديَ لُقيَـــاك في كـلّ حينٍ فياليتَ أنّـــــيَ أعطي مُرَادي
أقيمي على العهـــد ما بيننا ولا تَسْتَحيلـــي لِطُـــول البِعَاد
دَسَسْتُ اسمَك الحُلْوَ في طيّه وألّفت فيه حـــروف ((اعتماد))(١)

ويصرح المعتمد بحقيقة ما يحسه فيصور سيطرتها في البعاد، طالبًا منها أن تبادله السلام، ولا تبخل عليه بالتحية والسؤال، وحين يعجز عن ردّ التحية، يستسلم راضياً طالباً منها الاحتفاظ بالعهد، ونتيجة للواقع النفسي الذي يعيشه المعتمد، توجّه إليها بما يسر الخاطر ويشفي قلبه الحران ليكشف عن الخواطر ومدي حبه لها من خلال تأليف من اسمها اعتماد،كما قال الشاعر:

.... وألّفت فيه حـــروف ((اعتماد))

هذه الحروف تجسد ما يدور في أحاسيس الشاعر، خاصة حين يصور أنه ليس قادراً على تحمل غيابها، مما دفعه إلى التصريح بما أكنَّه لها من لوم وعتاب، يذكرنا من خلاله بما كان بينهما من عهود ومواثيق، وكأنه يطلب

---

(١) الديوان ٩.

منها مزيدا من الوفاء، ليؤكد لها قمة إخلاصه، حين يصور معاناته النفسية الشجية، لتلك التجربة الغزلية.

فالأبيات في جملتها تحكي طبيعة الموقف الشعوري كما صوره من خلال تلك الدفقة الشعورية التي رسمها بصدق ليصور لنا آلامه النفسية، ولكنه لم يسرف في تلك الآلام على الرغم أنها وجدت لنفسها مكاناً رحباً في صورة بُعد الحبيبة حين يعرض لمشهد الهجر ومفرداته.

ولم يترفع الشاعر من صور طيف المنام إذ يدور الصراع بينه وبين الوجد، ويصر الوجد على الظهور من خلال هذا المشهد الغرامي المغرق في الإباحية الغير مفرطة،ليجيد في رسم المشهد الموحي بطبيعة الموقف الغزلي، الذي يظهر من خلاله الحب محوره، مما تبدو معه مقومات الصورة مشتقة من التمني، وفيه يكشف الشاعر على المستوى النفسي وعن ولعه الشديد بالتلاقي، حين هجرته فلم يتبين من واقعه إلا ما يعصف بهذا الحب،الأمر الذي يزيد من إحساسه بالحرمان والفقد للحبيب.

ولعل عنف التجارب يجعله يبلور الأشياء والرؤى من منظور واحد لا يكاد يتعداه، ليعبر عن مكنونات نفسه وشدة سيطرة التجربة وتحكمها فيه، صحيح أنه يؤصل لتجربة الحب التي يعيشها بعيداً عن الأحلام ، ولكنه راح في بعض الأحيان يعرض شيئاً من ملامح الصورة الحسية.

إني رأيتُك في المنام ضَجيعَتي	وكأنَّ ساعدك الوثير وسَـــــادِي
وكأنما عانقتني،وشكوت مــا	أشكُوهُ من وجدي وطولِ سُهادي
وكأنّني قبَّلت ثَغرك والطُّلـــي	والوجْنَتينَ، ونلـــت منكِ مُرادي
وهواك، لولا أن طيفَك زائـــرٌ	في الغِبِّ لي، ما ذقتُ طـــعم رقاد([1])

فالحوار هنا أحادي الجانب يكشف لنا عن عمق الحب ورغبته في اختيار حالة الحرمان التي توصله إلى حالة من الإشباع الغرامي بلقاء الحبيب، فعرض التجربة ووفر لها من الصياغة الفنية المعبرة عن حقيقة المشاعر

([1]) الديوان ٩.

التي يعيشها، وكأنه يحرص على تجسيد الواقع النفسي كلما أتيحت له الفرصة،لأنه يقع ضحية للصراع وهياج العواطف، فتتشاجر في صدره ليكشف رغبته الملحة في هذا المشهد الغرامي، فربما خفف ذلك شيئاً من آلامه،وكأنه يريد أن يستقطب الناس جميعاً بتصوير رومانسي حاد ليشغلنا بقضية حياته التي يعدها أو يراها محوراً للحديث عن المرأة الزوجة.

أَلَكُمْ إلى الصّبّ الشَّجيّ مَـعادُ   فَتُفَكَّ عنـــهُ للأسى أصْفَادُ
رحَل اصطباري إذ رحلتم قائلاً   أوبُ الأحبَّـــةِ بيننا الميعادُ
يا من تَكِلتُ دنُوَّهم ووصالَهم   فَبَدَا عليَّ من الشُّحوب جِدَادُ
كم بتُّ منكُم بين غُصنَيْ بانَةٍ   كالسَّيف تضغطُ متنَه الأغمادُ[1]

فالأبيات تدور حول موضوع واحد لا يسمع فيه إلا مناجاة ونواميس الذكريات، تعرض وقائع الرحيل، فعدسة الشاعر تبدو حائرة بين الماضي وآلام واقعه،ليرسم لنا مشاهد غرامية تفوح منها العذاب بسبب اغتراب الحبيب حتى يكاد يرى عليه الشحوب على هيئة حداد،حداد يحميه نقمة الحزن والألم والتوجع ومشاعر الحداد الذي يبرزه حدة السيف فيكاد يظهر ما بداخله عندما يضغط على متنه.

ويظل شعر المعتمد قادراً على تفسير انتشار الغزل العذري واجترار قصة ارتحال الحبيبة بحكم التقاليد الصارمة التي تفرضها البيئة العربية إلى يومنا هذا، فيبدو الشاعر عاجزاً عن إقناع الحبيبة، استجابة لملكته وصوت الشعر حتى يتخلص من معاناته التي يفرغها في هذه الأبيات، ولذا بدا سلطان الشعر قادراً على تفسير نفسية الشاعر، خاصة أننا رأينا رصيده من الموروث الثقافي طريقاً من صوره الشعرية، وهي ملامح لا تتعارض مع كون الشاعر صانعاً فناً جديداً.

ويبدو أن المعتمد كان أقرب إلى الرغبة في الانتشار وذيوع مكانته من خلال الجمع بين شهرته كأمير وشهرته الغزلية كشاعر، فتعددت غرامياته،

---

[1]() الديوان ٩.

وكان طبيعياً أن يبدو هكذا في هذا النمط الغزلي إرضاء لنفسه والبيئة الأندلسية التي عاش فيها.

أما في مجال الغزل فقد غدت قصة المعتمد واحدة من قصص الحب العذري، فقد أحب اعتماد وأحبته، ولكنه تزوجها في نهاية المطاف، مما دفعه إلى حالة من الضياع والحرمان قبل أن يتزوجها، فحاول أن يترجمها في شكواه الحزينة من النأي، حيث راح يصور ويرصد الوقائع التي يعيشها في حياته الغزلية، حتى أصبح الغزل موضوعاً بارزاً في شعره، فهو وثيقة تقرنه بعصره، وتضمه إلى شعرائها بحكم ما يكشفه عن طابع تجاربه وواقعه النفسي، وإن كان قد اختلف عنهم حين انتحى بغزله إلى من يحب لا فرق بين امرأة حرة وامرأة مملوكة، ولكنه على المستويين جميعاً استطاع أن يعرض تجاربه ويجيد تصويرها.

أما من حيث الانتماء الفني فتتكرر المحاولات حول إدراج المعتمد ضمن مدرسة الشعراء الغزليين،ولكن الغريب في غزل المعتمد أنه تزوج أمة ولم يتزوج حرة،فأحبها وأحبته، فأثار شهية النقاد، بإثارة الجدل حوله، حتى شغلت البيئة الأدبية والنقدية، مما يضعه في مصاف كبار شعراء العصر الذين أسهموا في الحركة الأدبية فيه من ناحية،وشاركوا في تنمية مدرسة تراثية لها دورها في موضوع الغزل والصنعة الفنية من ناحية أخرى.

ويبدو أن موقف الشاعر وهو يرسم لوحة النّؤى بكل ما تحمله من آلام الهجر،وما يلح عليه من ذكريات الماضي في هذا الأمر، يكاد يقع ضحية البُعد، فيرسم صوراً لصاحبته من خلال اجترار الذكريات، ولكنه يصرح في نهاية المطاف (ولكنّها الأقـــدارُ تُردي بلا ظُبًا٠٠٠)، فمن الطبيعي أن يقف بمعرض الغزل عند تلك الدلالات القدرية على نحو من التخصيص يتسق مع حالة الشاعر النفسية.

أدَارَ النَّوى كم طال فيك تَلَدُّدِي وكم عُقْتني عــن دَار
أهيَفَ أغْيَد حلفتُ به لو قد تَعرَّض
دُونَـــه كُماةُ الأعادي في النَّسيج المسرَّدِ
لجرّدتُ للضّرب المهنَّدَ فانقضى مُرادي، وعزمـــاً مثل حدّ

فما المهنَّدِ
محل ((اعتماد)) مـــن فؤاد حـــــلّ خلٌ من فؤادِ خَليله محمَّد
وتُصْمي بلا قَتْلٍ، وترمـــي ولكنّها الأقـــدارُ تُردي بلا ظُبًا بلا يد (١)

وفي لوحة ثانية يرسم مشهداً لتواصل الحب بينهما، وفيها يسكب الكثير من آلامه،خاصة حين يعلق الحب على شهادة الناس، خاصة أنه لم يكتف بحبها، لذلك لم يبق أمامه إلا شهادة الناس التي ربما ساعدت على تسجيل إخلاصه لها من خلال تلك الصيغ الدعائية التي يسكبها على حبه، وقد تيقن أنه لم يبق له من حياته إلا تلك الدلائل التي يجسدها شعره، وفي مقابل شريط الذكريات يرسم واقعها أمامه من خلال بُعد الهجر.

يا ظبيةً لَطُفَتْ مـــنّي منازِلُها فالقلبُ منهنَّ والأحداقُ والكبدُ
حُبّي لك الناسُ طُرًّا يشهدون به وأنت شَاهِدَتي إن يَثنِهم حَسَدُ
لا يَعزُبُ الوصلُ فيمـــا بيننا أبدًا لـــو كنت واجدةً مثلَ الذي أجدُ (٢)

ولا نستطيع أن نزعم أن اللوحة الغزلية كاملة،ولكن الحالة النفسية القائمة التي يعيشها الشاعر ممزقة بين ماضيه وواقعه،فلا نكاد نتبين الحقائق إلا من خلال رؤية ضبابية تلتبس عليه الذكرى بالواقع، مما يدفعه إلى عرض تتداخل فيه الصور على هذا النحو.

يا ليـــتَ مدَّةَ بُعدِك رشيقةٌ مثـــلُ قَدّكْ
كُمدّة الوردِ،ورد الـــرّبيع،ولا ورِد خدّكْ

(١) الديوان ١٠، ٩.
(٢) الديوان ١٠

فَعمرُ ذا عُمْرُ صَبري وعمرُ ذا عمرُ صَدِّكْ
رضيتُ منكَ وإن لم تُنْـجـز بلذَّة وَعدكْ (١)

وعلى هذا يبدو تمايز هذه المقطوعات التي تقربه من تجربة العذريين،لا في عنفوانها وشدتها،كما رأينا عن أقرانه العذريين في حالة هيجانها وسكونها فيقف أمام قضية البعد ليكتفي بتصوير موقفه إزاء صاحبته، فإذا هو لم ينس من صورها ما رصده في شريط الذكريات فهي (رشيقة مثل القد، لها رائحة ذكية تشبه الورد في زمن الربيع،...).

وعلى المستوى الفني تبدو هذه اللوحات كدفقة شعورية تدور حول خط نفسي محوره البعد والهجر، فلم يعد الشاعر يتنفس إلا من خلال تلك الذكريات،مسجلاً كيف يسدل الستار بين المحبين في بيئة الأندلس الجميلة، وكأن السبيل قد انقطع أمام الأمير الشاب فلا يجد إلا صوراً مطروقة مستهلة، بدا فيها تقليديًا، يقف فيها هادئاً، حين يتناسى فيه حاضره، فإذا ما أفاق من نشوة مجلس أبيه وجد نفسه ضحية للغرام فانقلب منشداً.

سَلي تعلمي، إن كنت غيرَ عليمةٍ بـــأن ليس
في حُبّي لغيرك مطمعُ وأنّ لي القلبَ
الذي ليس خاليــاً من الوجد، والجفن الذي ليس يهجعُ
يذكّرنيك الغصــنُ يهــتزُّ عندما يهــبُّ نسـيمٌ، والغـــزالةُ
تطلعُ فو الله لا أنفـــكّ أذكرُ
موضعي لديــك، ولا أنفــكّ نحـــوَك أنزِعُ (٢)

ويظل لافتاً للنظر في هذه المقطوعات تلك المزاوجة بين موضوعين يلتقيان في عالم المعتمد على صعيد العمل الفني، وهما (الهجر والعذاب النفسي)، ولكن مع توسيع الرؤية النقدية يمكن أن نلمح في المقطوعة اقتداء بما صنعه

---

(١) الديوان ١٠.
(٢) الديوان ٢٠، ١٩.

الشعراء السابقين في الغزل أمثال عنترة بن شداد وغيره، والفرق بينهما هو البيئة الخاصة بكل منهما، وكون المعتمد حراً بن ملك أما عنترة فهو عبد .

ولعل سيطرة نغم الغزل قد دفع الشاعر إلى ذلك القِصَر الملحوظ في الأبيات، والتخلي عن عالم الصورة واللوحة الفنية المتسعة، فلا شك أن الغزل قد فعّل في هذه البيئة الأندلسية الجميلة، وربما حجب الكثير من طاقاته الخيالية، لذلك نرى الأبيات بدت تلقائية الأداء، وعفوية المعالجة التي تقربه إلى عالمه الاجتماعي في عالم الحب والغرام، فهو يصدر فنه عن منظور يختلف عما درج عليه ابن زيدون وغيره في صوره الأنيقة المشهورة على نحو ما رسمته لوحاته الفنية لولادة بن المستكفي.

وحين يعرض صورة الزوجة يعرضها في أناة واضحة،وكأن قلبه قد اطمأن إلى حبها من خلال تلك الأمنية التي يعيشها بكل أبعادها، لعله يبلور في هذا الموقف قضية الحرمان، فيبدو عذري الهوى، فناناً في صنعته

تظنُّ بنـــــا أمُّ الربيع سآمةً ألا غفـــر الرّحمنُ ذنباً تواقعُه
أأهجرُ ظبيًا في ضلوعي كناسُه وبدرَ تمام فــــي جُفوني مَطالعه
وروضةَ حسن أجتنيها، وبارِدًا من الظَّلم، لم تُحظَر عليّ شرائِعُه
إذًا عِدمتْ كفّــــي نوالاً تُفيضُه على مُعتفيها، أو عَـــدوًّا تُقارعه (١)

فهو لا يريد لهما عملاً في الحياة إلا تبادل الهوى، دون أن يأبه بأشياء أخرى تبعده عمن يحب، ولكنه يسبح في عالم الذكرى ليلتقط منه تلك الصور التي تريح المرأة (كتشبيهها بالظبي،وبدر تمام، وروضة حسن،...) ناهيك عن اسمها (أم الربيع)الذي يعبر عن النضرة وعدم الذبول، والتي صاغها من خلال حسن النسق، وهو توزيع تصوري يقوم على الموقف الاستشعاري،وكأنه يسترجع الماضي بجمال صورتها ليجد نفسه في حديقة مزدهرة، وكأنه يرصد مدلولات الغرام، فيبني مقومات الموقف حول بشاشة الوجه.

---

(١) الديوان ٢٠.

وعلى هذا النحو يعرض لنا الموقف الغزلي، فرأينا مقاييس الجمال من وجهة نظره، كما رأينا منه وفاء يحكمه ويضبطه الميثاق الغليظ الذي بينهما، ومع ذلك تبدو لوحة الغزل على قدر واضح من التميز والارتباط بشخصه، فإذا بفن الغزل عنده عبارة عن صور لا تكاد تنطلق إلا بحس صاحبها، وتنطلق من نبض حياته ومن تجاربه الخاصة.

أسَر الهوى نفسي، فعذّبها   يومَ الودَاع، فلم تُطق مَنْعَا
فأذابَ حـــرُّ صبابتي كَبدي   وأَسَالَها فـــي وجنتي دَمْعَا ([1])

هذا النغم يتصاعد في لوحة المعتمد، وتصبح اعتماد المحور الثابت المتكرر، حتى يتخذ منها مصدر إلهامه في كل موضوعات شعره الغزلي، فهي تفتح له سبل الانطلاق إلى الغزل التي بدا شديد الشغف بها، فأكثر من تصويرها على نفس النغم الغزلي.

ومن هنا كان لـ (اعتماد) رصيد ضخم من فن الشاعر، مما دفعه إلى تكرار اسمها، والإكثار من الإشارة إليها، لعله أحس في ذلك التكرار نوعاً من الراحة النفسية وهدوءاً عواطفه ومشاعره بعد إفراغ تجاربه، وبذلك تتعدد سلسلة الصور الغزلية من الصدق الفني

وَلَجَّ الفؤاد فما عسى أن أصنـعَا   ولقد نُصحتُ، فلم أرِدْ أن أسمعَا
أسفـــي ! أودُّ ولا أَوَدُّ،وأغتدي   وأروحُ، أحفظُ عهد من قد ضيَّعَا
ما كـــان ظنّي أن أجودَ بمهجتي   حُبًّا، وأقنَــــعَ بالسلام فأمنعَا
يا هاجرين، قد اشْتَفيتُم،فارفُقوا   وهبوا لعثرة عاشـــق لكم ((لَعَا))

---

[1]) الديوان ٢٠.

ردُّوا، بردّكــم السلام،حُشاشَةً لم تَبق، لولا أنّ فيكـــم مَطمعًا ([1])

فمن الملاحظ على صور المعتمد أنها موجزة،والنفس الشعري قصير،ولم يسرف في لوحاته إلى حد سيطرت فتاته على كيانه، حتى أصبحت مقياساً لرؤيته بشكل مطلق،وبدلاً من البحث عن مقدمات قصائده والدس بها في كل مناسبة، راح يبحث عن شكل آخر يذكره بمحبوبته، حين يتعرض لها موجزة، وكأن الشاعر قد بخل بفنه على غير صاحبته، وأراد الإيجاز،حتى يحتفظ لها بصورة تخالف ما يقدمه للناس.

ومن مشاهد الذكريات يكسر الشاعر حواجز العشق والغرام، فيجره إلى استجماع ملامح عشقه، مستعيناً في توضيح معالم الصورة ببعض الأمور التي ينكرها على من يلومه، حيث تتلاحق الصور بشكل يلفت النظر، لتصور عواطفه، وكأنه يبرز جيشانها في صدره ما يعرضه فيها من مقاييس الجمال، فيناديها بالظبية التي سلبت فؤاده.

وكأنه يكشف عن حسه الجمالي،فهو يستقي مواده من بيئته وتجاربه على السواء،فيزاوج بينهما جميعاً،٠فيحرص على التوكيد ليؤكد حبه لها أو حتى مجرد الشك في حبه، مما دفعه إلى نفي الشبهة عنه.

بَكَرتْ تلوم، وفي الفؤاد بَلابل سَفَهًا، وهل يَثْني الحليم الجاهلُ
يـــا هذه، كُفّي، فإنّي عاشقٌ مـــــن لا يَرُدُّ هواي عنها عاذلُ
حبُّ (اعتمادٍ) في الجوانح ساكنٌ لا القلبُ ضاق به، ولا هو راحلُ
يـــا ظبيةً، سَلَبت فؤادَ محمد أَوَ لَـــــمْ يروّعْك الهِزَبرُ الباسِلُ
مـــن شكَّ أنّي هائمٌ بك مغرمٌ فعلى هَـــــــواكِ لهُ عليَّ دلائلُ لـــونٌ

([1]) الديوان ٢١، ٢٠.

كَسَتْه صفرةٌ، ومدامعٌ هطَلَت سحائبهـــــا،وجسمٌ ناحلُ ([1])

ومن خلال ما تقدم يصور المعتمد ما في أعماقه بعد أن صور المنظر الغزلي من خلال قريحته الشعرية، فمن الأعماق تبدو نفسه جيَّاشة إلى اعتماد، ويبدو خياله قادراً على استجماع طيفها، ويبدو فؤاده مرتاعاً من شدة الشوق، ليكسر الشاعر حواجز المرأة الحرة ويتغزل في الجواري.

ويزداد حنينه في عالم الذكرى فلا يستطيع أن يسكب الدمع بلا حساب،ويرفض اللوم والعتاب، ويجره الموقف الغزلي إلى استجماع ملامح الغزل ومقاييس الجمال التي تتلون بتلون المواقف الغزلية، مستعيناً في توضيح معالم الصورة ببعض التشبيهات ليكمل الأداء الغزلي، وكأنه يبرر جيشانه في صدره بما يعرضه فيها من مقاييس الجمال.

كما يكشف المعتمد عن حسه الغزلي بما استخلص من معالم جمال المرأة وحرصه على سكب عواطفه على مشاهد الجمال،فبدت مواقفه ضرورية لتوضيح الحركة الأدبية في عصره،الأمر الذي نتج عنه اختلاف بين درجات التأثير فيمن يتغزل فيهن.

ومن هنا كان الإقدام على هذه الفنية الغزلية مصحوباً بمزيد من الإيضاح والتعرف على ألوان من رصيد الفن الغزلي في العصر الذي يعيش فيه الشاعر، انطلاقاً من الرغبة في تأمل الجمال، ومحاولة تصنيفه ومعالجته معالجة فنية، مع الاعتراف بالفروق الجوهرية فيمن يتغزل فيهن من الإماء، فيتربع على العرش الغزلي في مخيلة الشاعر محبوبته وزوجته (اعتماد)، ثم تأتي بقية الجواري في المرتبة الثانية.

كما يكشف غزل المعتمد عن أنه يدور في دائرة متخصصة، تكشف استجابته لكل الظروف التي تمر بها الأندلس، هذا إذا أضفنا ما التمسه عن قرب من أبعاد نفسية لعالم المرأة، فراح يرصد بعض سمات عصره مما يميز

([1]) الديوان ٢٣.

شعره بسمات فنية يمكن طرحها من خلال رؤيته التحليلية لبعض الأسماء، كسحر، ووداد، وجوهرة،.. اللائي أرى أنه من الضروري التعرض لهن الآن.

٢- سحر:

أكثر المعتمد في ترداد كلمات الشكوى، والتفاني في عصر حشاشة الأحاسيس الشاعرية، ليتولد عنده في نهج الحب المتفاني بالوفاء، الشديد الالتصاق بشمائل الجسد المتألم، لندرك أهمية الموازنة بين الفناء فيمن يحب والبقاء المتجدد كلما زاد الهجر وبُعد الحبيب، فيجعل الهيام يأخذ بتلابيب الحب فيصرعه في لوعة الهياج الجامح، بل يجدد له مقاييس عقلانية، تبرز الألم الشديد المحرق، واللوعة المفجعة بغياب الحبيب، ولكنه لا يفقد القدرة على الجلد والصبر، فيصمد في البقاء على أمل اللقاء، حتى ولو بعد حين، والحق أن المعتمد أصبح بوتقة انصهرت فيها تيارات الغزل، فقال وهو عليل، وقد زارته جاريته سحر :

سأسأل رَبّي أن يُديم بي الشَّكْوى ... فقد قَرَّبَتْ من مَضْجَعي الرَّشَأَ الأحْوى
إذا علَّةٌ كانت لقربك عِلَّـــــــــةً ... تَمَنَّيتُ أن تَبقى بجسمي وأن تَقوى
شكوتُ، وسِحرٌ قد أغبَّت زيارتِي ... فجاءت بها النَّعمى التي سُميّت بَلوى
فيا علّتي، دُومي فأنتِ حبيبةٌ ... ويا ربِّ سَمعاً من ندائيَ والشَّكوي([1])

وبمثل هذا القول رسم صورة (لسحر) في وجدانه، تزهو بألوان الجمال المزدهي بفتنة خلاقة مبدعة، جسدها حسنها برقته وعذوبته، فرفرفت على نفسه تراتيل الحب، بنغم دافئ حنون،تنسل منه خفايا القلوب وبوح لواعج العشق، ودندنات الهجر المغموسة بشفافية الروح المهيمنة على النفس، ومن بين مدلولات تعابير الشاعر تظهر محاورات تدور حولها مثالية فلسفة غزله التي تشد المرأة إلى الرجل، بل اندفع بشتى أنواع التعابير المنبثقة من خفايا

[1]() الديوان ٢

النفس الهائمة بأروع جاذب للمرأة وهو الهجر بعدما ألف منها ما ألف،فلا يحاسبها بكل ما فعلته به ؛ بل يطلب منها الصفح والعفو.

عفا الله سحرٍ على كل حالةٍ ولا حوسبت عما بما أنا واجدٌ أسحر ظلمتِ
النفس واخترت فرقتي فجمعتِ أحزاني وهنّ شوارد
وكانت شجوني باقترابك نُزّحاً فها هنَّ لما أن نأيتِ شواهدُ
فان تستلذي بردَ مائك بعدما فبعدك ما ندري متى الماء بارد (1)

وتكشف هذه الأبيات عن أن المادة الفنية التي عرضها بدت كافية للدلالة على صدقه الفني والاجتماعي معاً، وهو صدق تزداد أهميته حين يكشف طبيعة التيار الغزلي عنده كمبدع وبعالمه الغرامي،مما دفعه إلى تسجيل ملامح بارزة عكسها خياله عن واقعه، إذ راح يسجل بطولات غزلية وفنية لا تخلو من التقليد،وإن كان من خلف هذا كله يبدو متعلقاً ـ كشاعر فنان ـ بالنقلة الحضارية التي حدث في بلاد الأندلس.

كما يسجل حرص المعتمد على الغزل كجزء من حياته،حتى التقت في حياته المتناقضات فكان غزله بين جوار وإماء،هذا بالإضافة إلى كونه ملك ليس عنده غرور فيجعل فيمن يحب عاشقاً أكثر منه معشوقاً، فربما كان لكثرة الجواري وانتشارهن في قصور الملوك عاملاً مساعداً للمعتمد على طرح هذا التصور.

(٣) وداد:

---

(1) الديوان ١٧

وتتعدد الدوافع في نفس المعتمد حول تسجيل بطولاته الغزلية المتكررة، أيريد أن يطمح أن يكون فتى العصر؟، كما كان ابن زيدون فتى ولادة في عصره، فآثر الاغتراب والانصراف إلى مغامراته الخاصة مع فتاته وداد التي بدت موصولة بوده، فهو يستطيع أن يتجاوز محنته، فالمرأة عند المعتمد ليست طيفاً عابراً يمر بخاطره لتحقيق شهوة أو نزوة يشتهيها،ويمني نفسه بالوصول إليها ويبتغيها ؛ بل هي وسيلة من الوسائل الفنية التي يستعين بها على أداء المضمون المختمر في خاطره فيعجب للجمال، فقد يمزج بين الخمر واللهو والغزل،فيصور نفسه المعذبة بالفراق دون تصعير الخدّ، كما قال في جاريته وداد :

اشرب الكأسَ في وِدَاد وِدادِكِ انفِرَادِكْ ... وتأنّسْ بذكرك في
غاب عن جفونك مــــــرآ ... قمرٌ
فؤادِك ([1]) ... هُ، وسكناهُ في سَوادِ

ويعتقد المعتمد اعتقاداً راسخاً أن الحبَّ ينبع من العواطف المغلفة بعطر اللهفة والحنان، فهذه ((وداد)) تبعث عطرها ليستنشقه كل ذي عرق نابض بالحياة، هذه الجارية هي التي ملكت قلبه، وأسرت لبه، وبقيت خالدة في أعماق حسِّه وصدره، وثنايا مشاعره المستقرة في شغاف قلبه، فصورتها محفورة في صفحة حياته، فربما قائل يقول : إن غزل المعتمد لا يستشعر عاطفة خاصة تجاه مخلوقةٍ بعينها،أو حبيبة وقف عليها حياته وشعره بحبها، وعلى الرغم من ذلك لا يسعنا إلا أن نعجب بغزل المعتمد ، الذي ينحدر من حياة اللهو والشباب.

وقد يبدو الأمر أكثر بساطة إذا تجنبنا مسألة اللهو والشباب الذين ينغمسان فيهما الشاعر،إذ لا يصمت المعتضد أن يرى ابنه يرتاد أماكن اللهو وهو الذي يليه في الخلافة، ولا يسمح كذلك الشعب الأندلسي أن يراه كذلك، حتى إذا ثاب إلى نفسه، واستبطن شعوره العاطفي إزاء عالم المرأة، بدا مضطراً لأن يدور في عالم الشجن على نهج شعراء عصره، عندئذ بدا غزله طبيعياً في كثير من

([1]) الديوان ١٠ونفح الطيب ٢٣٢/٥.

مقطوعاته، حين راح يصور بطولاته ومغامراته ، فنحن أمام شاعر يقدم الفن على السلوك الديني، خاصة وسط ذلك الزخم الحضاري الذي لم يتح له فرصة الهدوء وسط كوكبة من شعراء الأندلس.

(٤) جوهرة:

ويتطور مشهد الإعجاب بفتاته ((جوهرة)) لتتلاءم مع طبيعته الغزلية، وقربه من عالم المرأة، وابتعاده عن عالم السياسة، والنأي بنفسه عن الإقحام فيها خاصة في مراحل حياته الأولى، وعدم الارتباط بقضايا البلاط العبادي وقضاياه، ألم يكن في حاجة إلى التريث بدلاً من الانشغال بأمور الحب والغرام؟، وهذا لا يعني أنه ينصرف عن المشاركة السياسية، فبدا خاضعاً لهواه كبقية شباب البيئة الأندلسية، مما زاد لديه من الإحساس، وكأنّ بطولاته الغزلية بديلاً عن مشاركته في سياسة عصره، لعله يستطيع أن يعوض نفسه عما فرض عليه من الاغتراب السياسي، وأنّ الترف الذي عاش فيه المعتمد كان إيذاناً عن أجواء النعيم، فنحن أمام فتى اجتمع لدية الشباب والترف معاً، ليوفرا بين يديه صوراً متعددة من مباهج الحياة وترف العيش مما دفعه بالضرورة إلى لون معين من السلوك الحضاري الذي يعيش فيه.

جوهر، قـــد عذَّبَنِي — منك تمادى الغَضبِ
فزَفْرتي في صَعَـــدٍ — وعَبْرَتِي في صَبَب
يا كوكب الحُس الذي — أزْرَى بزُهر الشُّهُبِ
مَسْكَنُك القلبُ فـــلا — تَرْضَىْ له بالوصَب ([1])

ويدخل المعتمد من خلال غرامياته لجارية له تسمى (جوهرة) كان يحبها، فكتب إليها يسترضيها في عتاب جرى بينهما، وقد هيمنت عليها لوحة الغضب الذي تمادى ليصبح حالة من الوصب، مرتدياً زيّ العاشق، ومتقمصاً شخصية الشاب اللاهي، مجرداً من نفسه ذلك المحاور اللبق الذي يقنع الحبيب، وقد ازدحمت في وجدانه عواطف وانفعالات يكاد يقطع حبل الأمل في وصالها،

([1]) الديوان ٣.

خاصة حين يتذكر حصانة عفيفة تدور بينهما، فيتألم ألم الشعراء العذريين،ويفشل في الوصول في حل هذا الموقف الحواري، فلا الحبل موصول،ولا القلب مقصر،ولا الشمل مجموع، ولا نأيها يسلي، ولا هو يتحلى بالصر،...وهي كلها مواقف تسجل مكانة (جوهر) في قلبه واضطرابه وحيرته نتيجة لما حدث بينهما.

فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها،فرد عليها قالا:

لَمْ تصف لى بعدُ، وإلا فلْمِ   لَمْ أرَ في عنوانها جوهَرْه
درتْ بأنّي عاشقٌ لا سمها   فلم تُرد للغيــظ أن تذكُره
قالــــت: إذا أبصره ثانياً   قبَّله، والله لا أبــــصرَه([1])

هذه اللوحات يتوقف المعتمد حيالها، ليدخل إلى غزله مرتدياً زيّ العاشق، متقمصاً شخصية الشاب المحب الفاتن، متجرداً من طبقته الارستقراطية، محاكياً الفحول في الغزل، فيذكر صاحبته (جوهر) وقد احتشد وجدانه من عواطف وانفعالات، خاصة حين يتذكرها، وقد (درتْ بأنّي عاشقٌ لا سمها)، يبدو تتقاذفه الهوى عندما يسمع اسمها، فيعيش في حالة من الصراع، وكأنه يكمل حلقة الأمراء المتغزلين، ولكنه سرعان ما ينخرط في لوحة أخرى يرسمها بريشة الشاعر العذري، فنجده غير فرح مسرورا ببعده عن محبوبته جوهر.

سرورنا دونكُم ناقـــص   والطيب لا صاف،ولا خاصُ
والسعد إن طالعنا نجمه   وغبت، فهو الآفل الناكص
سّموك بالجوهر مظلومةً   مثلك لا يدركـــــه غائص([2])

فهو يعيش حالة من الصراع ويترقب ما يفعله هذا الشعر في أذن حبيبته،وقد اشتد به الألم وتيمه الهوى، وما زاد من همومه بُعدها عنه حتى أصبح فألاً غير طيب،فهو يبدو في صورة المغامر الذي يسعد بوجودها، حتى إذا وقع في

---

[1]() الديوان ١٤.
[2]() الديوان ١٧.

أزمته،وتعقد الأمر بينهما لجأ إلى الفأل،فعرضه في شكل يتسق مع الرقي الحضاري الذي يعيش فيه.

ولعل تعدد المحبوبات على هذا النحو، يسجل حرص المعتمد على الغزل الذي لا يقتصر على محبوبة واحدة، مما يدل على أن صاحبه مغرم بالجمال، يعجب به أينما كان، لا كهولاء المحبين الذين لا يرون الجمال مثلاً إلاَ في واحدة، وليس حبه حباً عذرياً، يقنع من الحب بالذكرى وطيف الخيال ,فلا ترى في غزله صوفية، ولكنه غزل دائم الحديث عن لذة المتعة بالجمال.

فالغزل كجزء من حياته،حتى أنه لم يلتفت في غزله بالحرائر،فربما غض الطرف عن الحرائر نظراً لقيود المجتمع، فقد استمر طيلة حياته متعلقاً بغزل الجواري، فكانت المرأة عنده من ذوق آخر،غير حرائر القصور، وقد ينأى بنفسه عن الخوض في هذا الصنف على الرغم من مستوى الثراء المادي الذي يعيش فيه المعتمد، ولكن يظل الفاصل بينهما ظاهراً وطرح التجارب من خلال قصائد بائناً،وعلى كل تبدو المرأة في نظره عليها من أسباب الزينة، وعلى الرغم من ذلك نجده يقترب من عذري الهوى من ناحية عدم خدش الحياء، فيكاد يقترب بغزله من العذرين رغم تعدد المحبوبات.

وقد يبدو الأمر أكثر بساطة إذا تفهمنا الحالة الاجتماعية التي يعيشها المعتمد حين كثرت أمامه المرأة من جوار أو وحرائر ، وأتيحت له فرص للغزل،أسهمت في تشكيل حديثه عن المرأة بذلك الطابع الخاص الذي عرفه عنه،حتى إذا ما ثاب إلى نفسه،واستبطن شعوره العاطفي إزاء عالم المرأة،يبدو فيها مضطراً لأن يدور في عالم الشجن على نهج شعراء عصره.

ويكفي المعتمد أن رسم لوحة من خلال غزله للجو الأستقراطي المترف الذي يعيش فيه،فبدا متحكماً بدرجة أنه تحكم في كل غزله فهو الذي يتحرك ويغامر ويصل إلى فتاته، وعلى المستوى العاطفي يبدو شديد الوله حريصاً على محبوباته سريعاً في أشواقه وعواطفه،ولكن المأخذ الذي يؤخذ عليه هو عدم اكتمال الصور الغزلية، مما يفسر لنا أن هذه النتف والمقطوعات كانت تقال على البديهة دون إعداد مسبق، وسيظل المعتمد في صنعته رهناً بما

قدمه من تصوير لواقعه النفسي وواقع العصر في بيئته، مما انتهى به إلى عرض كثير من تلك الصور الغزلية.

كما انه كان حريصاً على تصوير بخل المحبوبة كما هو شائع عن العذريين،فالمحبوبة بخيلة دائماً،شحيحة الوصال، لأن ما تملكه غير قابل للبذل والعطاء، هذا البخل الذي تتصف به المحبوبة صفة مدح وليس صفة ذم ودليل على أن المحبوبة طاهرة شريفة، وكان المعتمد لا يعد محباً إلا إذا أفرط في الهوى وبالغ في التذلل والرجاء، وللمحبوبة أن تبخل وتصد، وتعرض وتضن،وعلى المحب أن يصبر ويتذلل،وهذه هي الصورة التي ألف عليها المعتمد.

د. أولاد المعتمد :

كان للمعتمد أولاد كثر ذكر منهم :المأمون، الرشيد عبد الله، والراضي يزيد،،والمؤتمن، وهؤلاء كانوا أولاده الكبار، أما بقية أولاده فنجد أسماءهم في كتب التاريخ والأدب، من مثل الظافر، والمعتدّ، ومالك، وعبد الجبار، وأبي هاشم، وبثينة، وشرف الدولة، وفخر الدولة،وسعداً.... فقد قال صاحب نفح الطيب :((كان له من بنيه عدة أقمار نظمهم سلك السلك،وزين بهم سماء ذلك الملك،،فكانوا معاقل بلاده،وحماة طارفة وتلاده))([1]) وهؤلاء الأولاد قد ذاقوا طعم نعيم الملك ، كما ذاقوا طعم السجن وقيوده فمنهم من قتل ومنهم من أقصي وبعد عن سدة الملك،وسنعرض لبعضهم من خلال شعره.

---

[1]() نفح الطيب ٥/ ٣٧٦، وقال عنه الشاعر ابن اللبانة: ملك المعتمد من الحصون مائتي حصن وولد له مئة ولد وثلاثة وثلاثة وسبعون ولداً، وكان لمطبخه في اليوم ثمانية قناطير من اللحم أي قرابة ثلاثمئة وخمسين كليو جراما .

١- المأمون([١])

أول أولاد المعتمد واسمعه عبّاد، ويكنى أبا الفتح، وأبا نصر أيضاً،ولد في حياة جده المعتضد،وقد ولاه قرطبة حينما استولى عليها ثانية سنة ٤٧١هـ، ولقبه المأمون، وكان أشهر ملوك زمانه خيراً وأيمنهم طيراً وبقي أميراً عليها إلى أن دهت الدولة العبادية بغارات الملثمين سنة ٣٨٤هـ فقاتل حتى قتل في صفر من هذه السنة.

وردتَ أبا الفَتْحِ يا سيِّدي وُرودَ الكَرى بعد طُول السُّهادِ

ولمَّا احْتَللَتَ بنا لم تَحُـــــلَّ من القلبِ والعين غَيرَ السَّواد

ودُونَك منا طيوراً غدت تطيرُ إليك بريِش الـــوِدَاد([٢])

ففخر المعتمد بابنه أبي الفتح قليل ورثاؤه كثير، وسواء مدح أم رثي،...فهو لا يرى له مثيلاً في الوجود، وقد أحس بعظمة شخصيته، وقدر صفاته، فامتلأ صدره وفاض فخراً، لأنه كان يعد نفسه امتداداً لقومه، فإذا نظرت للأبيات نجد فيه ترفعاً عن الدنايا، وجمال الصفات الرجولية، فاندفعت روحه الشعرية لتعبر شيئاً من مكانة المأمون في قوله: (من القلبِ والعين غَيرَ السَّواد).

والأبيات تشي باعتزاز المعتمد بابنه المأمون،الذي هو غصن من فرع شجرة المعتمد بن عباد، يتخذ من الجانب الأسري في ذاته مقدمة يدخل بها إلى التعريف بابنه، وتصوير حالة العطف الأبوي الذي راح يضيق فيه، ومع هذا تبقى خصوصية الموقف مؤذنة بمكانة الابن، فالقضية بالنسبة للمعتمد

---

[١]() المأمون لقب عباد بن المعتمد ويكنى أيضاً أبا الفتح وأبا نصر، وهو أكبر أولاد المعتمد، استخلفه أبوه على قرطبة بعد تغلبه عليها وإخراج ابن عكاشة منها وقتله إياه انتقاماً منه لسراج الدولة بن المعتمد الذي قتل سنة ٤٦٨هـ، وظل المأمون على قرطبةً إلى أن زحف عليها أحد جيوش يوسف بن تاشفين بقيادة أبي عبد الله بن الحاج فقتل بعد دفاع مجيد عنها في سنة ٤٨٤هـ .

[٢]() الديوان ٤٦.

ليست مجرد ورود أبي الفتح، ولكن الرغبة في التخلص من حالة الإحباط التي فرضت عليه .

٢- الراضي بالله (أبو خالد يزيد بن المعتمد))(١):

ملك تحدّر من أصل عريق، يسبقه في ذلك أصله الشريف، كانت لديه تجارب شعرية، وأحب العلم حتى شغله عن الغزو أو الدفاع عن الملك،وأقلع عن الدراسة وانشغل بالسياسة ((فكان الراضي والي الجزيرة الخضراء حين عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس،ومما يؤثر من أخباره، أنه قبض على ابن عمّار في شقورة سنة ٦٧٧ كما تقدم في أخبار هذا الشاعر))(٢).

كان الراضي يحب الشعر وينظمه ويطلع على دواوين الشعراء، مما جعله يرد على أبيه المعتمد في بعض الأمور التي حدثت في عصره، فكتب إلى أبيه أنه عاكف على دفاتره ولم يقصد العدو حين قصد (لُورقة)، وهو في (رُندة) فأمر المعتمد بالخروج إليه مدافعاً عنها فتلكأ، فاستعان بابنه (المعتَدّ)للقاء العدو فهزم جيش المعتد، واشتد غضب المعتمد على الراضي، فكتب إلى أبيه المعتمد فقال:

لا يَكرثنك خطب الحادث الجاري　　فما عليك بذاك الخطب
مـــــن عار　　ماذا على ضَيغم أمضي
عزيمتَه　　إن خانـــه حـــــــــدّ أنياب وأظفار
لئن أتوك فمن جُبن ومن خَـــور　　قد ينهض العَير نحو الضيغم
الضاري　　عليك للناس أن تَبقى لنُصرتهم
ومـــــا عليك لـــــــــهم إسعاد أقدار

---

(١) الراضي :لقب يزيد بن عباد، كان والي الجزيرة الخضراء من قبل أبيه قبيل اجتياز يوسف بن تاشفين للأندلس، وهو الذي قبض على بن عمار في شقوة سنة ٤٧٧هـ وكان والي رنده إلى إلى سنة ٤٨٤، وظل معتصماً بها مدافعاً عنها الجيش الثاني ليوسف بقيادة جرور اللمتوني إلى أن قتل فيها بعد أخيه المأمون بقليل .

(٢) المعتمد بن عباد، الملك الجواد الشجاع، الشاعر المرَزّأ٨٨، عبد الوهاب عزام، طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩م .

لو يعلم الناس فيما أن تدوم لهم بكـــــوا لأنك من ثوب الصبا عاري
ولو أطاقوا انتقاصاً من حياتهم لـــم يُتحفـــــوك بشيء غير أعمار(١)

تقع هذه الأبيات في أجواء مأتمية يعقبها نوع من الفخر الجريح، وبقدر ما يستدعى أسى وحسرة بسبب الهزيمة، يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً عن الخطب الذي لحق بهزيمة أخيه، ثم يمدّ أبعاده ويعمق أغواره بالصور، فيصور أباه بالضيغم الذي يخافه الداني والقاصي، ليمثل الحسرة المتشبثة بفؤاده، حيناً بعد حين يأتي لنصرة قومه،فالمرء قلّما يفطن إلى علاقة تربطه بين حسرة الهزيمة وعزائمه التي لا تتماسك،والذي عبر عن العدو بالجبن والخور، وهي قيمة متولدة من قدرة الشاعر على التعبير عن حقيقة ما يعانيه في حدود علاقته بأبيه، مستمداً معانيه من المعاني التقليدية التي دأب عليها شعراء الفخر.

إن المقابلة بين الأبيات التي يجريها الشاعر، تطلعنا على طبيعة التجربة في فخر المعتد، تجعلنا نتبين الأشطر الأولى فخراً واعتزازاً، والثانية تبرير واعتذار لمواقفه مع أبيه المعتمد، لأنهم تحضروا من أرومة واحدة، فينبري من بين أشلائه وركامه، متعاظماً بنفسه، إذ يخيل للمرء أن ما يشير إليه هو أبعد من أعدائه.

وكان المعتد حين وصل إلى (لُورقة) أعلم أن العدوّ قد بعث إليها جيشاً، فأمر ابنه الرّاضي بالخروج في عسكر جرَّده، فأظهر التمارض، وانصرف إلى المطالعة،فغضب المعتمد حيناً، ثم عطف عليه، وكتب إليه مازجاً مفرجاً ما فيه:

الملك في طيّ الـــــدفاترْ فتَخَلَّ عن قودِ العساكِـــــرْ
طُفْ بالسَّرير مسلّمـــــــاً وارجع لتوديــــــع المنابِرُ

---

(١) ذكرها صاحب نفح الطيب ٤/ للراضي ٢٥٣، وكذلك ذكرها د/ عبد الوهاب عزام ونسبها للراضي في كتاب المعتمد بن عباد، الملك الجواد الشجاع، الشاعر المرَزَّأ، ٨٨، طبع دار المعارف ولم نجد هذه الأبيات في الديوان.

وازحف إلى جيش المعا رف تَقهـــــرِ الحبرَ المُغَامِر
واطعن بأطرافِ الـــيرا ع ـ نُصِرت ـ في ثَغْر المحابرْ
واضرب بسكّين الــدّوا ة، مكــــان ماضيٍ الحدِّ باترْ
أوَ لستَ رَسطَــالِيس إن ذُكِرَ الفــــلاسفةُ الأكـــابْر
وكذاك إن ذُكر الخليـــــلُ، فــــــأنت نحويٌّ وشاعـــرْ
وأبو حنيفةَ ساقــــــطٌ في الرأيِ حين تكون حَاظــرْ
من هرمُسٌ،مــــن سيبويـــــه،من فُورَك ؟ إن تُنــــاظرْ ([1])

وليس مثل هذا القول الذي يقوله المعتمد نوعاً من التأييد لابنه الراضي بالله، بل إنه رمز لموقف نفسي يمر به المعتمد، كموقف الصمود للمصائب، والقدر الفاقد للحكمة، إذ لو استسلم المعتمد وابنه للهزيمة، لانهارت نفسه، إنه نوع من إساءة الظن بالمعتمد،وهذا الشعور بالذات يلازم أصحاب النفوس القوية الشديدي الاعتداد بأنفسهم،المتوهمين أنهم خصوا بما لم ينله سواهم.

إنه نوع من لوم ابنه على التقاعس عن الغزو، إذ يعز عليه أن يرى ابنه مشغولاً بالدفاتر عن الغزو وهذا لا يصنع مُلكاً، ويتخذ ذلك وسيلة لإظهار سُخطه ورفضه لواقع ابنه واعتصامه عن الناس، إن ابنه سقط في هاوية الدفاتر، فكان مثل : رسطاليس الفليسوف، والخليل بن أحمد النحوي والشاعر، وأبو حنيفة الفقيه، وكأنه يريد أن يقول لابنه إنّ العلم لا يشغل عن الغزو.

ومع ذلك نلمح عوامل الأسى والقنوط تنازع نفس المعتمد المأزوم، إنه يتمنى أن يسمع من ابنه قعقعة السلاح وعدو الخيل والصياح في ساحة القتال، مع الدفاتر،....،هذه الأشياء تصنع ملكاً وتعيد أرضاً مسلوبة في وقعة،

---

[1]() الديوان ٤٧، ٤٦. هرمس : قالوا الهرامسة ثلاثة: هرمس الأول وكان قبل الطوفان، وهرمس :لقب، كما يقال قيصر وكسرى، وتسمية الفرس في سيرها (اللهجد) وتفسيره ذو عدل، وهرمس الثاني من أهل بابل وكان بارعاً في الطب والفلسفة عارفاً بطبائع الأعداء وكان تلميذه فيثاغورس، وهرمس الثالث وقد سكن مصر وهو صاحب كتاب الحيوان ذوات السموم، وكان طبيباً فيلسوفاً وله كلام حسن في صناعة الكيمياء، وابن فُورَك : وهو محمد بن الحسين بن فورك واعظ عالم بالأصول والكلام من فقهاء الشافعية، حدث بنيسابور وبني فيها مدرسة وله تآليف كثيرة .

وكأنه يطلب من أعماق ضميره أن يكون ابنه مثله في مقارعة الأعداء وهي تعد من مكارم الملك ودعائم الدولة.

هذي المكارمُ قد حَويــــــــــــتَ،فكن لمن حاباك شاكِرْ
واقــعـد فــإنّــك طاعمٌ كــــاسٍ،وقل : هلْ من مُفاخِر
فَحجَبْتُ وجَهَ رضايَ عنْـــــــك، وكـنـتَ قـد تـلقاهُ سافِر
أَوَ لست تذكُر وقت لــُو رقــــــةٍ، وقـلـبُك ثَـمَّ طائرْ
لا يستقــرُّ مـكـــــانَه وأبـــوك كالضّــــــرِغام خَادِرْ
هـــلا اقتـديــتَ بفعله وأطـعتــَه،إذ ذاك آمِـــــــرْ
قـــد كـــان أبصَر بالعوا قب،والمــوارِد، والمصادِرْ (1)

إنّ المعتمد يعمد إلى تصوير حلمه الثائر القاني بالمشاهد التي توهم باليقين الفعلي، فهو لا يبرح الضرب والطعن،إذ يطغى عليه الانفعال الهادئ الذي فيه تسخط ونقمة على ابنه الراضي، فهو يطلب منه استرداد كرامته، الذي اقتصر على أدوات السلطة والقوة، ويرى أنه صنيع أبيه، فالأبيات شديدة الوقع، استمدت عمق تأثرها من نبرة الغضب والعطف في الوقت نفسه، والمعاني المتدفقة تدفقاً.

أما البيت الثاني فتصف الراضي متكاسلاً لا يتطلع إلى المعالي، ويتمنى المعتمد أن يكون ابنه امتداداً له، وهذا هو هاجسه الدائم،وحلمه المالئ نفسه طموحاً،،فيتجلى لنا شخصية المعتمد في قرارة نفسه،متألماً في أعماق قلبه،وذلك أنه لا يستطيع القبول بالاستكانة أو مرورا بالحدث دون التلميح إليه، وينظر إلى ابنه بعين حادة يلتمع فيها الشدة والعطف، وبقلب قاس يغلفه الرحمة، وقلب رقيق شديد الانفعال.

وفخر المعتمد ينظر فيه إلى الدوحة الكريمة، فيتعالى في سمائها، ويغرق بين أوراقها في عشق ووله، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن ذكر من فرعها، فيصاب بالألم، لذلك نراه يشبه نفسه بالضرغام (أبـــوك كالضّـــــِرغام خَادِرْ)، وفي الوقت نفسه تذوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً، فإذا شعره فيه شدة ولين، ومزيج من قسوة ورقة، أما فخره بنفسه، فهو تطلع إلى العلياء، وتحديق بالمجد والإباء، وإعجاب بشجاعته في حسم

(1) الديوان ٤٨، ٤٧.

هذه المواقف، ويتمنى أن يسلك ابنه نفس المسلك وأنّى له ذلك وهو مشغول بالدفاتر لذلك نرى ابنه الراضي يقول :

مولاي قد أصبحت كافر بجميع ما تحوي الدفاتر
وفللت سكـــــين الدوا ة، وظلت للأقلام كاسر
وعلمت أن المـــلك ما بين الأسنـــة والبواتر
والمجد والعلــياء في ضرب العساكر بالعساكر (1)

وإنك لتشعر عند قراءة أبيات الراضي انصهاراً للاعتذار مؤلماً، وبجو ملحمي يحاول أن يعيش فيه، ليضخم عناصر القوة، فآهات العتاب تفجر عنده نوعاً من الندم، محتكماً إلى الأسنة والقنا،غير لائذ بالصبر، إذ تنزو به الثورة من جديد،بعد أن كان ينعم بالدفاتر ويتلهى بها،وأيقن أن استعلاءه على خصومه هو غاية أبيه، فهو يطلب العلا،فإما أن يناله وإما أن يموت دونه.

وقد استحال الشعر في اعتذار الراضي لأبيه إلى نوع من التنفيس عن غضبه،والتوتر الذي أمده بالانفعال وجسّده الخيال،وقد أورده في سياق الاعتذار الذي طغى على نفسه، فينفث ما كان يضمره من لوعة الإحساس بالفشل، لذلك نراه يجمع بين الاعتذار والهمة، وبين العلم والقوة،الأمر الذي أثبت الغزو وفشله موحياً بذلك أن مشكلته في الطموح والعنفوان، فهو معذب ولا خلاص له من عذاب أبيه إلا النصر، وقد أفصح في البيت الأخير عن نوع المجد الذي يبتغيه كما قال:

والمجد والعلـــياء في ضرب العساكر بالعساكر

٣ـ أبو هاشم (2):

وفي الجزء الخاص بأبي هاشم لا يتوانى المعتمد عن تصوير نفسه بطلاً عملاقاً، وإن كان لا يخفى حرصه على إضفاء الصفات القتالية عند احتدام

---

(1) الديوان ٤٨.

(2) أبو هاشم ::كنية أصغر أولاده المعتمد وكان أحبهم إلى أبيه وأحظاهم على صغره لديه، كان تركه عليلاً بأشبيلية حينما ذهب إلى القتال في يوم الجمعة المشهور بيوم العروبة الذي حدثت فيه معركة الزلاقة، فتذكره حين جدت الحرب وجرح في جبينه ويمينه .

القتال يوم العروبة([1])، يوم خرج مقاتلاً في سبيل الدعوة الإسلامية دون أن يبغي من ذلك الخروج غرضاً دنيوياً، لذلك راح يعرض بعض جوانب الموضوع بما فيه من إيجابية وسلبية، فكانت الإيجابية البارزة في جانب المعتمد وذكره ابنه أبا هاشم، فكان بمثابة إضاءة تزيد من إشراق الدور البطولي للمعتمد :

أبا هاشم هشمتني الشّفار   فلله صبري لذاك الأُوارْ
ذكرت شُخيصك ما بينها   فلم يَدْعُني حبُّهُ للفرار([2])

هذه النفس المعتمدية التي جمعت شدة البطولة ورقة الحنان،هي التي قادت الكتائب في معركة (الزلاقة)، والتي ارتفعت إلى أعلى قمة من البطولة، وأن أفعاله كانت ناطقة بسمو نفسه وعلو قيمه، وكأني به لا يجد مفراً في قرارة نفسه وهو في وقت الشدة أن يذكر من يحب، ليذكرنا بعنترة بن شداد وهو يذكرنا بمن يحب فهو يهرب إليه في وقت الشدة، كأن يريد أن يكون له عوناً وسنداً، وهو الذي أرغم المعتمد على الصبر ومعاناة الحرب، وهذا يجعلنا نقول إن أبا هاشم لا يفارق ذاكرته لأن المعتمد يفكر فيه ويهواه.

هـ ـ قصور المعتمد بن عباد:

عندما خلف المعتمد أباه المعتضد فكر في بناء قصور جديد لإقامته تختلف عن قصر أبيه، وكان البذخ الملكي يجعل من مثل هذه الأبنية ضرورة حتمية،فربما يكون وراء ذلك صعوبة أن تقيم نساؤه في نفس المكان الذي توجد فيه نساء الأمير المتوفى، مما يجعل انتقال الوارث إلى قصر آخر أمراً ضرورياً.

([1]) هذا هو اليوم الذي حدثت فيه معركة الزلاقة بالقرب من بطليوس بين جيوش المعتمد بن عباد وأمراء الأندلس والمرابطين وبين الفونس السادس ملك قشتالة، وكانت الدائرة فيها على الفونس وجيشه .

([2]) الديوان ٤٨، ومعنى (هشمتني الشّفار) وصفاً لما لاقاه المعتمد في هذه المعركة .

وتهيّأت قرطبة لتكون عاصمة خلافة المعتمد، يؤمها القاصي والداني، وتتوارد إليها ثروة البلاد المجاورة وعلى عرشها المعتمد في عظمته وجلاله، وحوله الوزراء والجواري والقيان والشعراء، وكلهم في جّوٍ حافل بالترف والرَّخاء والموسيقى والغناء، والخليفة في رفعة الشأن وبسطة السُّلطان، يفرض هيبته على الكبير والصغير، ويجعل العسس في الليل والنهار رسلاً بينه وبين الرعية، فلا تفوته شارة ولا واردة إلا عرفها، وإلى جانب قرطبة البلاد المجاورة فيها القصور والقباب، والثروة والسِّعة في العيش والقباب، وهكذا يدور معظم الحديث في القصور عن عظمة المعتمد وما يحيط بها من هالة الترف،وما يتطلبه الإمارة والشرف، وما يغرق فيها من الألحان والأنغام، واللهو والمجون على أوتار القيان، فكتب إلى أصحاب له بالزهراء، يدعوهم إلى قصر البستان بقرطبة:

حسدَ القَصْرُ فيكم الزَّهـــراءَ ولعمري وعمركُـــم ما أسَاءَ

قد طلَعتُم بها شموساً صَباحاً فاطلُعوا عندنا، بُدوراً،مساء (١)

كانت الدنيا مقبلة على المعتمد غير مدبرة،والأمور تجري كما يحب ويرغب،ويهوى ويطلب، فوجد نفسه كأحسن ما يجد الملوك ثراء ورفاهية وقصوراً، ومن هذه القصور ((قصر الزهراء، قصر البستان)) بقرطبة، يقول صاحب نفح الطيب عن قصر الزهراء ((هو من عجائب ابنية الدنيا)) (٢)، وقد أتى الشاعر آثر أن يأتي ببيتين مباشرين،خاليتين من التصوير الفني،ليتحدث بضمير المتكلم والفعل الماضي ((حسد)) ليؤكد الفرح والسرور اللذين تحيطان به ولندمائه الذين يشبهون الشموس، ولم يكن المعتمد في معرض المدح بقدر ما هو في معرض الوصف، فجاءت وقفته أمام قصر البستان،تنبيهاً لحالته النفسية الفرحة.

---

(١) الديوان ٤٩.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٢٤.

ويتردد المعتمد على ((قصر الزاهر)) قصر والده بعد وفاته، ولكنه أقام قصراً صغيراً على الضفة الأخرى من الوادي الكبير، أسماه الزاهي، ويقول الفتح بن خاقان: ((إن المعتمد كان يفضل هذا القصر لأنه يطل على النهر، والقصر الكبير،ويستطيع فيه أن ينطلق بلا حدود مع مباهجه المتنوعة)) ([1]).

وحاول المؤرخ أن يعطينا فكرة عن ارتفاع ((قصر الزاهي))، فوازن بينه وبين قلعة حلب التي عاش فيها بنو حمدان، وبينه وبين قصر غُمدان، وتاريخ هذا غامض إلى حد ما، وإنما اشتهر لارتباطه بأسطورة سيف بن ذي يزن، ولا نستطيع الشك في أن (الزاهي) كان يطل على الوادي الكبير .

كان قصر (الزاهي) يضم قبة مشهورة يطلق عليهما اسم (سعد السعود) وذات يوم أنشد المعتمد شطر هذا البيت :

سعد السعود يتيه فوق الزاهي ....

ثم استجاز الحاضرين فعجزوا، فصنع ولده عبيد الله الرشيد

.... وكلاهما في حسنـــه متنـاهي

ومن اغتدى سكناً لمثل محمدِ قد جلَّ في العليا عـــن الأشباه

لا زال يبلــغ فيهما ما شاءَه ودهت عِداهُ من الخطوب دواهي ([2])

في هذه المحاولة الشعرية العابرة تتقارب العقليتان العقلية الواثقة المطمئنة المتمثلة في عقلية المعتمد، والعقلية المنبثقة من ذلك المشكاة، التي تركت في نفسه شيئاً من السرور عندما رأى ابنه يكمل ما بدأه، فقوّى في نفسه هذه النزعة الشعرية، واتجه تفكيره ومحور سياسته إلى اقتناص الفرص، وانتزاع المناسبات لتوطيد مكانته الشعرية ومشاركة أمه اعتماداً الرميكية في بهجة هذا المحاولات.

ولم يكن المعتمد يتردد على قصر الزاهي إلا في الحفلات الخاصة به، التي يقيمها فيه، أما القصر الذي اتخذه مقراً له مع نسائه وكل جهازه الإداري فيقع في نطاق الدائرة الحصينة التي كان الزاهي يشغل طرفاً منها، وتحمل هذا القصور أسماء ((المكرم والمبارك)).

---

[1] () نفح الطيب ٤/ ٢٧٥.

[2] () الديوان ٧٦.

ولا نعرف عن ((المكرم)) إلا شيئاً قليلاً،يحكي ابن خاقان عن ذي الوزارتين أبي بكر ابن القصيرة،((أنه كان بغرفة القصر ((المكرم)) مقيماً لرسوم المعتمد وحدوده، ومنشأ لمخاطباته وعهوده، في اليوم الذي خرج فيه ابن عمار إلى شلب معه،مفتقداً لأعمالها،مسدداً أغراض عمالها))([1]).

كما نعرف من الذخيرة لابن بسام أنّ المعتمد ما ترك قصر ((المبارك)) لبعض الوقت، وأقام في قصر ((المكرم))، فأثار ذلك في نفس الكاتب الوزير أبي جعفر بن أحمد أن ينشئ رسالة على لسان القصر الأول يناجي فيها القصر الثاني،وأخرى على لسان الثاني يرد فيها على الأول، ولكننا لا نخرج من هذا السجع إلا بمعلومة ضئيلة،وهي أن ((المكرم)) أحدث عهداً في بنائه،وأن الحديقة التي به تغص بالأزهار من كل لون وصنف ([2]).

أما قصر ((المبارك)) فهو دون أدنى شك القصر الذي بقي حتى يومنا هذا بعد إصلاحه وترميمه،وحمل اسم القصر، ويرجع بناؤه إلى أيام المعتضد، ولو أن هذا كان يفضل عليه المؤرخين الذين تحدثوا كثيراً عن قصور الأمويين في قرطبة صمتوا عن القصر في أشبيلية،ولم يقولوا عنه شيئاً.

على أن مبلغ إعزازه لنفسه وإكباره للملك في شخصه، تتجلى في أوضح صورة في سخطه على الذين ينصِّبون أنفسهم وهم ليسوا له أكفاء في دويلات الأندلس الغراء، فيحزنه ذلك، ويود لو استطاع أن يحكم بلاد الأندلس قاطبة ليستقيم له من مدنها العوجاء، فلا عجب أن يقال فيه الفتح بن خاقان: ((عرف عنه أنه ملك قمع العدى، وجمع الناس والندى، وطلع على الدنيا كبدر هدى، لم يتعطل يوماً كفه ولا بنانه آونة يراعه في كتابة الشعر، وآونة سنانه وكانت أيامه مواسم وثغور برة بواسم ولياليه كلها دررا وللزمان أحجالا،.... وشبابه غض لم يرعه مشيب،))([3]).

---

[1]() قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، تحقيق محمد العنابي، ٥، المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٦م، (نسخة مصورة عن طبعة باريس).

[2]() الذخيرة ٣/٧٥٩.

[3]() انظر نفح الطيب ٤/ ٢٤٨.

لذلك كتب المعتمد إلى ابن عمار يذكره بأيامه ولياليه السعيدة، ومعاهد لهوه التليده، ومجالسه السعيدة بـ (شلب)، فيقول:

ألا حـــــيّ أوطاني بشلب أبا بكـرِ وسلهـنَّ هل عهد الوصال كما أدري
وسلّم على قصر الشراجيب عن فتى لـــــه أبــداً شوق إلى ذلك القصرِ
منـــــــازل آسادٍ، وبيض نواعم فناهيك عــن غِيلٍ، وناهيك من خدرِ
وكم ليلةٍ قـــــد بتّ أنعم جُنحها بمخصبـــة الأرداف مجدبة الخصرِ
وبيض، وسمر، فـــاعلات بمهجتي فعــال الصّفاح البيض والأسَل المسرِ
وليل بسدّ النهر لــــــهواً قطعتــه بذات ســـوار، مثل مُنعطِف النهرِ
نضت بردها عن غصن بــانٍ منَّعم نضيرٍ،كما ا انشقّ الكمام عن الزّهر
وباتت تُسقِّيني المـــــدام بلحظهـا فمن كأسها حيناً وحيناً مـــن الثغر
وتُطربُني أوتارُها،وكأنَّنـــــــي سمعـــتُ بأوتـــــار الطُّلي نغَمَ البتر (١)

هذه الأبيات توضح منازل الأنس والذكريات في (شلب)،كما سجلها المعتمد في شعره، وما ظفر به من متع مشفوعة باللهو والطرب والأصحاب، يحنّ إليها إذا نأى عنها، فشعر بالشوق إلى ملاعب الصبا، وحنّ إليها بخيال الأمس،فيتراءى له عالم الذكريات،تكشف عن نشوة الشاعر وسعادته الغامرة يضفى عليه من إبداعه، ويصل بالمشهد كله إلى أقصى درجات السرور، حين يجمع بين الماضي والحاضر، فتذكر مواطن الجمال في (شلب)، وهي لا تزال حية متحركة منقوشة في ذهنه لا ينساها، لذلك بدا الشاعر يعي حقيقة الموقف الجمالي حين أدرك أن قصر (الشراجيب) فيه ما فيه من الذكريات، مما دفعه إلى محاولة تتبع أبعاد الصورة، التي رسمها من خلال ملاعب الصبا، وينتقل بين تلك المشاهد ليرسم لنا صورة ليلة من لياليه قضاها بين مخضوبات

---

(١) الديوان، ١٢، ١١، ٢٠.

الأرداف من بيض وسمر، أثرن في قلبه،وحركن جوارحه ولبه، وبين خمر معتقة وأخرى من الثغر منعشة، على أوتار القيان .

ولا ننسى أن المعتمد يعيش واقعاً نفسياً فيه ما فيه من الاضطراب، فسرعان ما تصدمه الذكريات،وهنا يحدث رد الفعل الطبيعي في نفسه، حين يعود ليقص علينا هدوء الليل وما فيه من لهو شجي، محاولاً من خلاله رسم صورة لفتاة حسناء، ترجعه إلى ماضي الذكريات، ليكشف عن شدة شغفه بملاعب الصبا، مع شدة دهشته حين تغيرت (شلب)، فكل ما استطاع أن يصوره هو تلك العودة إلى الماضي، ليقارن بين واقعه وماضيه، ولا نخفي ـ في ثنايا هذه الصور ـ فتنة المعتمد بملاعب الصبا،مما انعكس بوضوح شديد في المقارنة التي عقدها بين الماضي بذكرياته والحاضر المتمثل في الملك وتبعاته.

كما يدهشنا ما نراه من طلاوة،تأخذ بتلابيب الفرح لترفعه إلى الأعلى من السرور، وتشده إلى صدر البهجة القريب، والفرح المغرق في السعادة، الذي يحمل نوعاً من استرجاع ينابيع الماضي، ولعل فيض العاطفة المنحدر من ذكريات الأمس، وكأنه في كل هذا يحمل بين جنبيه قلباً سريع التذكر،دائم الخفقان، حيال قصوره الحسان، وقد أمدته نفس شاعرة،وملكة خصبة وافرة، وقدرة على اللحن على أوتار الذكريات.

و ـ جوده وكرمه :

ربما كان من الصعوبة أن يتحدث المرء عن كرمه وجوده، لأن هذا يعد ـ عند البعض ـ نوعاً من المبالغة، فأسباب الجود كانت تسري في جسده سريان الدم في الأوردة، لذلك لا نستطرد في عرض مواطن جوده حتى لا نتهم بالمغالاة أو عدم الحيدة في البحث، هذا إذا عرفنا أن المعتمد تحدث عن جود وكرم أبيه ما فيه، وهو فرع من هذه الدوحة الكريمة.

وقد تعددت فروع الجود عند المعتمد، ولم تحتج إلى الكدِّ الذهني، وكان رد الفعل الطبيعي لموقف الشاعر أن يحاول صياغة نظرية الجود، وقد ساعدته ثقافته على النهوض بذلك، حين أدخل الشعر شريكاً لإبراز هذه الخصلة

المحمودة، ومن شدة اقتناعه والارتفاع بمستوى أبيه قدر المستطاع فلا يُلام وهو شاعر.

ففي موضع من مواضع الجود يصور المعتمد معالم رفده وتضخيم ينابيع كرمه، فأول ما يلفت نظر القارئ ارتياحه للعطاء، واستنفاره للكرم والجود، ويبدو أن حبّ المعتمد للجود يفوق الخيال، فلم يعد يأبه بالنصر بقدر ما يهنأ بالجود، فقد انتهى كل شيء عنده إلى بذل وعطاء، وكأنه لم ينس الجود في يوم من الأيام،وانه أدرك منه أقاصيه، وعقد بالشعر نواصيه.

الجودُ أحلَى على قلبي من الظَّفَر ومن مَنال قَصِيِّ السُّؤلِ والـــــوَطَر
ومن غِناء أرَيْوَي في الصّبوح لنا يا طلعَةَ الشمس في الآصال والبكُرِ
وقد حنَنتُ إلى ما اعتدتُ من كرمٍ حنينَ أرض إلى مستأخـــــر المطر
وقد تناهتْ يدي عن كأسها غضباً ومجَّت الأذنُ أيضـــــا نغْمةَ الوترِ
حتى أُمَلِّك هذي ما تجـــــودُ به وأسمعَ الـــحمدَ بالأخرى على الأثر
فهاتها خِلَعاً أُرضى السّماح بـــها محفــــــوفةً في أكفّ الشَّربِ بالبِدَرِ(١)

وبريشة فنان أصيل يرسم صورة لجوده مقرونة بحنين الأرض إلى المطر، وقد تعذّر نزوله مما عرض حياة الناس للخطر، وهي صورة تبعث - في جملتها - شيئاً من الطمأنينة وترف العيش، طمأنينة لمن يطلب الرفد،وترف بمن بيده المال والملك حين أخذ يتأمل الصورة الحسية، فبين حاجة الناس للكرم، كاحتياج الأرض للمطر،لينقل لنا المشهد المرئي كاملاً.

وقد اكتملت للشاعر أدواته التصويرية في ذلك العرض الجمالي للكرم، حين عكف على مصادر الجود المختلفة، محاولاً تغليب صور الحمد، حين عرّج

(١) الديوان ٦٥.

على صور البداوة، وهي صفات تراثية أخرجها الشاعر إخراجاً يواتي متطلبات الكرم، وقد مزجها بنجابة الأصل.

ويظهر المُلك مصدراً هاماً في كل ما يجود به خاطره، وفي الطرف المقابل يستحق ثناء الرعية، وكأنها ظاهرة تفرض نفسها عليه، ليصبح التوهج الكرمي في شخصه، فتتجسد فيه طموحات رعاياه، ومع هذا لم ينس أن يرضي ذاته.

وعلمته تجربة السياسة أساساً شيّد عليه قصره المتعالي في الجود، فأدرك أنها لا تجدي معها القوة، وأنه لابد فيها من الملاينة والحظوة، ومن توظيف الجود ليرقق القلوب النافرة، وهذا يدل على أنه أندى الملوك راحة وأرحبهم ساحة، وكان بابه محط الناس وكعبة آمالهم في الترحال.

مشاهد الترح

يمتاز شعر المعتمد في فترة الترح بأنه ينفذ إلى القلوب نفوذاً سريعاً، فهو شعر يصدر عن القلب،وإيمان بالغ بهذه المحنة، من خلال وجدانية ملتهبة الحرارة، فيبرز عذابه النفسي، في بحر من الظلمات الملتوية التعاريج، ضمن حياة يقاسي مضضها، ويغوص على مرِّها، لقد قُيّضن للمعتمد أن يعيش النعيم بكل ما تعنيه الكلمة حتى راق لهم العصر، وان ينزل من القصر بالقسر، إلى قبضة الأسر، ودخل حياة قاسية فرضتها عليه الظروف،وأخرجته من مملكته منحى الرأس في انكسار النفس، كسير الجانب،مودعاً مملكته بنظرات كلها حسرات،والبوح لا يفارقه أهله، والنوح لا يفارق رعيته.

فإذا أكثرنا من تحديق البصيرة في قصائد الترح، تبين لنا أن الشاعر عاش حياة قاسية فرضتها النفس عليه وأخرجته عن قانون الملوك،وجعلت منه روحاً تهيم بالأطلال وجعلته يعيش حياة يحيط بها الألم والحسرة والندم.

إذا كان الشعر قد رثى المدن وبكاها وهي تسقط في ربوع الأندلس، فإنّ المعتمد قد رثى نفسه وهو يسقط مثل المدن، فقدم العزاء والدموع رثاء لملكه،وقد هرب الفرح من حياته،وأقبل الترح لينهك بقية الجسد الجريح قبل مماته، حتى قيل عنه:() أنه أول من رثي نفسه،وهو لم يصنع هذا الرثاء على

طريقة من يئسوا من حياتهم لمرض أو أمل ضائع مثلما صنع ابن شهيد وغيره، وإنما كان يرثي ملكه ويبكي دولته))([1])

إنّ مجد المعتمد بن عباد بلغ الذروة بمكان بين أقرانه الملوك إلى أن أصبحت الجزيرة دويلات صغيرة وطوائف متناحرة بين الحدود، حتى بدأ المدّ المعتمدي ينحسر، والقوة تشيخ وتنكسر، والنور يخفت ويحل الظلام،فضاع ملكه وسقط في قاع الأسر على يد المرابطين الذي استعان بهم في وقت العسرة، فانقضت سنوات الأفراح، وأقبلت أيام الأتراح التي كانت طويلة رغم قصر مدتها، فبعد أن كان أميرًا أصبح أسيرًا، وبدأ يقص بواعث العذاب ، ويصف حوارق البخور المنتشرة داخل حنايا أحشائه الملتهبة بجمر الآلام، فأصبحت حية متحركة ناطقة لتصور حياته داخل السجن، ليرسلها إلى الأجيال المقبلة بواسطة أحاسيس الشعر المعبرة، فوصف حياته وصفاً بليغ الأثر.

روي العماد الأصفهاني في خريدة القصر بإسناد عن قاضي الجماعة بأشبيلية ((أنه لما خُلع المعتمد غَرَّبه يوسف بن تاشفين إلى العُدوة، فوصل إلى موضع منها،وأهل البلد خارجون للاستسقاء فأنشد :

خرَجُوا ليسْتَسقُوا، فقلتُ لهـــم   دمعي ينوبُ لكم عن الأَنواءِ
قالوا: حقيقٌ،في دموعك مَقْنَعٌ   لكنّها ممـــــــــزوجةٌ بدماءِ([2])

ونظرة منّا إلى ما جاء في هذين الأبيتين اللذين يبدو فيها المعتمد سارحاً في فُسَح الملك، وهو يجوب بخياله في مملكته جنوباً وشمالاً،شرقاً وغرباً، فأخرجته النظرة عن قانون الملوك،وجعلت منه روحاً تهيم بمواقف ترتبط بين الشعر والشعور، لتؤكد أن الشعر يصدر عن عاطفته الكامنة في حنايا مشاعره المؤلمة، التي تسيطر عليها الكآبة والتعاسة، ليعيش حياة الغربة والألم.

---

[1] () الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، د/مصطفى الشكعه، ٥٣٣، طبع دار العلم للملايين، الطبعة السابعة ١٩٩٢.

[2] () الديوان ٨٩.

إن كل شيء يبكي معه، تنزف نفسه دماً، وقلب الشاعر متألم، جريح نازف، فلو استطاع أن يملأ الجرار بدموعه لفعل ! والحقيقة أن هذه الكلمات الملونة بلون الدماء،ما هي إلا صرخات معذب،عاش ظروفاً مترفة،فواكبتها ظروف قاسية متعبة، وهي التي جعلت شعره من ألفه إلى يائه ـ في أيام الترح ـ مجموعة صرخات تئن تحت ضغط الألم، وعلى هذا تتكرر معانيه وخيالاته بنسبة ما يتكرر الألم في حياته، فينساب الشعر على لسانه في عفوية الخاطر، فتغرق في أعماق أحاسيسه وأنت به وامق.

ومن الواضح ((أن يوسف بن تاشفين أراد بنقل المعتمد إلى أغمات أن يكون قريباً من رقابته حتى يأمن جانبه، ويطمئن من ناحيته، فهي قريبة من قاعدة ملكه، وبعيدة عن بر العدوة، ويصعب على المعتمد أن يجد بها سبيلاً إلى الهرب، أو طريقاً إلى الثورة، ورفع راية العصيان))([1]).

جلس المعتمد بأقدام متعبة، ونفس منهارة ثائرة،وأجفان قد أذبلتها الأحزان، فطافت بنفسه أحلام ملكه والذكريات، وتقلبت أمامه صور الملك والإمارة، وتتابعت رسوم الأيام الكثيرة المترفة، وجاشت في قلبه هالة عزه، وعجت في صدره الأمواج الثائرة خلال أيام أسره، فلما آلمه القيد،وهو أسير في السجن قال:

تبدَّلتُ من عزَّ ظَّل البُنُودِ ... بذُلِ الحديد، وثـقْلِ القُيُود

وكان حديدي سِنَاناً ذَليقاً ... وعَضْباً رقيقاً صقيك الحديدِ

فقد صــار ذَاك وذَا أدهماً ... يَعضُّ بساقيَّ عَضَّ الأسُودِ ([2])

إنّ للألم يداً كبرى في تكوين نفسية المعتمد، فهو يرقق العواطف ويرهف الإحساس، فيجعلنا متيقظين متنبهين لأدق التأثيرات، يمتد به في نطاق رحب، وقد يميط الستار عن مواطن في النفس مكتومة كامنة، مما يفجر عيوناً من الألم، وبركاناً من هدهدات النفس المعذبة، ليهدينا إلى موارد جديدة مما يعانيه

---

[1]() المعتمد بن عباد، بقلم على أدهم نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سلسلة أعلام العرب، طبع دار مصر للطباعة .

[2]() الديوان ٩٤.

في نفسه، وهكذا لازم الألم المعتمد فوفر له مادة واسعة، واستقل بنصيب كبير من شعره.

ومن عميق الأسى والحزن يقدم لنا الصورة الناطقة بجرعة الألم والحسرة، فيردد أصداء الترح على ما فات من أيام الفرح، حين يتراءى أمامه الخضوع في صورة السم النقيع،ولا يكتفي الشاعر بوصف المغتصب لملكه، بل يتعداه إلى المغتصب لإرادته، يحاول خنق أجيج ناره المتوهجة في ثنايا ضلوعه، ليمحو ما يعانيه من الذل والقهر، ولكن الشاعر لا يستطيع الصمت، بل يجهر بما في نفسه مردداً في قصائده الحزينة التي تنزف بقطرات دامية، بخطا بطيئة مثقلة الهموم، فتجري عصارتها في شرايين الوجود، حتى يخيل إليك وأنت تقرأ محنته، يتراءَى لك أنَّ المعتمد يدنو بقصائده نحو محنته، وقد تغلّفت جميعها بغلاف الحزن والأسى، نسجته المباخر الشعرية وهي تحرق بخور الأرج العابق في ملكه الزائل، ولعلَ من أجمل قصائده التي تعبَر عن هذه حال ضميره، قصيدةٌ قالها عندما هوجمت أشبيلية، فخرج مدافعاً عن نفسه وأهله وكان قد أشار عليه وزراؤه بالخضوع والاستعطاف فرفض وقال:

لمَا تماسكتِ الدُّمـــوعُ وتنبَه القلبُ الصديـــعُ
قالوا: الخضوعُ سياسةٌ فليبَدُ منك لهـم خضُوع
وألذُّ من طَعم الخضـــو ع على فمي السَـمُّ النّقيع
إن يسلب القومُ العِـــدا مُلكي وتُسْلِمْني الجُمـوع
فالقلبُ بين ضلُوعـــه لم تُسلمِ القلبَ الضلُـــوع
لم أُستلب شرف الطِّبا عِ، أيُسلَـبُ الشرفُ الرفيع؟
قد رُمت يومَ نِزَالـــهم ألا تُحصّنني الـــدُّرُوع
وبرزتُ ليس سوَى القَميص علـــى الحشَا شيءٌ دَفُوع
وبذلتُ نفسي كـــي تَسيلَ إذا يَسيـــلُ بها النّجيع
أجَلي تأخَّرَ، لم يكُـــن بهـــواي ذُلِّي والخضُوع
ما سرتُ قـطُّ إلى القتا ل وكـان من أمَلِي الرجوع

شيمُ الألى، أنـــا منهمُ والأصـــلُ تتبعه الفروع([1])

هذه الكلمات المسربلة بألم الآهات المحركة لشعره الحزين الراصدة لتحركات حياته،فالدموع حاولت أن تتماسك، فلم تقو على الانحدار، والقلب الذي تصدع من كثرة الألم كاد يتوقف، ليعبر عن الغرض المتأجج لهيباً في صدره، ليغيب في عالم الماضي الحزين، فيتذكر قصوره الشاهقة عبر الأيام والسنين، ليعبَّر عن الواقع الذي يعيشه، لنفهم حقيقة البركان الذي تمثله القوي في مطامعه وقدراته وإسقاط مملكته، ويخيل إليّ أنه كانت تصل إلى أذنيه أصوات تمرد توقظ فيه الحمية الملكية مرة ثانية، مع أنه فاقد لعناصر الدفاع عن نفسه في مرحلة القيد وحبسه، واستلاب ملكه ونفسه، لذلك كان وقع العذاب أليماً.

وبينما المعتمد يتلظى فوق اضطرام أجيج السجن المستعر ناره في حناياه، كانت تتردد على مسامعه أصداء ماضيه، ظهر في مواقف عديدة من شعره، كملك سلب ملكه،فقد كانت طائفة من أهل فارس،قد عاثوا فيها فساداً، فسجنهم يوسف بن تاشفين بأغمات،حيث كان المعتمد أسيراً، فكان يتسلّى بمجالستهم حيناً إلى أن شفع فيهم، وانطلقوا من وثاقهم،وبقي المعتمد يتشكّى من ضيق الكَبل، فدخلوا عليه مودّعين،فقال:

أمَا لا نسكابِ الدّمع في الخدّ راحةٌ لقـــد آن أن يَفْنَى
ويفنى به الخدُّ هَبُوا دعوةً يـــا آل
فاسٍ لمبتلىً بِمَا مـنْهُ قـد عافاكمْ الصَّمدُ الفردُ
تخلّصتُمُ من سجن أغمات والتوتْ علىّ قُيودٌ لــــم يَجِنْ فكُّها بَعدُ
مـــن الدُّهْم، أمّا خلقها فأساودٌ تَلَوَّى، وأمّا الأيدُ والبطشُ فالأسْدُ
فَهُنِّئتمُ النُّعمـــي، ودامت لكلّكم سعادتُه إن كـــان قد خانني سعدُ
خرجتم جماعـــات، وخُلِّفتُ واحدا ولله في أمري وأمـــركم
الحَمد ([2])

---

[1]() الديوان ٨٩، ٨٨.
[2]() الديوان ٩٥، ٩٤.

ويأتي هذا الشعر من نتاج تفاعل البواعث الدفينة في نفسه،المتأثرة بآلام الأسر، فظهرت غصة في صدر الشاعر، ولَّدها تشفعه لمن سجن معه في سجن أغمات من قِبل ابن تاشفين لتعزيز مكانته، وتحسين مكانته، وهو مصاب بآلام القيد، فتلك بواعث القلب الممزقة لأعماق أحاسيسه المتعبة.

إن انسكاب الدمع على الخد له دلالات كثيرة تريح الإنسان،وقد اصابت المعتمد حالات من الاكتئاب وهو ينظر إلى حالته وهو يقظان،يرى من معه يُفك أسرهم وهو مقيّد بنفسه، فلا يبقى إلا قلبه الخافق بنور الذكريات الساطع من الأيام السحيقة، ليعبر عن ذلك كله في قوله:((خرجتم جماعـــات، وخُلِّفتُ واحدا....))، فكأنه عاش آلاف السنين في السجن، وقليل من أيام الملك، فانكفأت الأيام تتوارى خلف أيام الحبس، ليردد من آهات شعره، لعله يرتاح من خلال تجاربه النفسية القاسية، الضاغطة على تفكيره العميق الصدى، المحيطة بكل أحاسيسه، ولكنه أبى أن يعيش في الأسى، فصهرته الآلام ليعيش فيها مرغماً، فالت الأقدار كفته مؤونة العذاب، وقربت أيام الشقاء.

فعلى الرغم من محنته الأليمة، تجد من نفسه نفساً تشارك الآخرين، كما تعوّد وهو في مملكته، ومع أنّه شديد الانصهار في حريق الألم، نجد أنه يعيش في ظلال ملكه حتى وهو داخل محبسه،ولكن تداعي الألفاظ الباكية الحارقة لخديه، تجد عفواً يسير في شخصيته وروحاً أخلاقية تحول بينه وبين من حُبس،فلم يرض لهم بالحبس، فالمعتمد رغم تردده كثيراً عن آلامه ؛ إلا فأنه مطبوع بطابع الكآبة التي لا تستسيغ ما يتقبله الواقع، من أحداث تخرج أحياناً عن مألوف حياته.

ومن هذا الوعي المتناهي الإدراك، أنضج ألفاظه الشعرية في حوار مداره بين الحرية والحبس، فقد نعبت غربان أغمات بجوار المكان الذي كان أسيراً فيه وكأنها تقصده بالذات،فقال :

غربانَ أغماتَ لا تعدَمْن طيبةً   من الليالي، وأفناناً من الشَّجر
تُظِــلُّ زُغبَ فراخٍ تسكنُّ بها   من الحَرُور،وتكفيها أذَى المطرِ

كما نعبْتُنَّ لي بالفأل يُعجُبني مخبـــِرات به عن أطيب الخبر[1]

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من نزعة تشاؤمية ، تنبئ عن غربته وعزمه في مناهضة نفسه الغريبة، فيتقوّى بها، ويضمد جراحها، ويظل مقيماً على الصبر والأمل والطموح، فلا نراه ينحدر إلى مستوى الناس، أي إلى الضعف والاستسلام إلى الآلام، غير أنه قد يعجز أحياناً عن كبت حزنه، فيضيق صدره، ويحاول أن يكتمه مع ذلك، فيرسله في قالب تشاؤمي في صورة غراب البين، ليشاركه همومه وآلامه، ليزيد في توسيع الفجوة بينه وبين ملكه.

إن الحبس قد أيقظ عاطفة المعتمد وهاجها، ولولا العاطفة لأصبح شعر المعتمد عاطلاً من صفة أساسية مهمة، فهو يكتب عن حبسه وألمه ويدعه يتسرب إلى أعماق ذاته، ولا يزال يكتمه ويكظمه، حتى يصبح حزن بعد حزن، ويأس بعد يأس، ويعجز عن قهر نفسه، فيثور فيه حزنه ويجيش ثم ينفجر متلهباً جباراً، فيندفع إلى أعماق نفس قارئه، ليحمله على الحزن، ويقحمه في ذلك إقحاماً،في صورة أسئلة.

مــاذا رمتك به الأيام يا كبدي من نبلهنَّ، ولا رامٍ سوى القدرِ

أسْرٌ وعُسرٌ، ولا يُسرٌ أُؤَمِّلهُ أستـغـفـرُ الله، كـم لله من نظَرِ[2]

ولا أدري أي حزن عميق يتسرب إلى أعماق قلب المعتمد، وقد ضاق عن كتمانه ذرعاً، فنظر نظرات يائسة في الحياة، وقد حللها وتأمل في تفاصيلها ملياً، فبيَّن قدر الله، وله في ذلك حكمة لا يعلمها المعتمد، ولكنه لم يشأ أن يسفر عنها إسفاراً مكشوفاً، خشية أن يؤدي به إلى الضعف، فأعرب عنها في شكل حكمة، وطواها على ذاته،ولم يكن المعتمد كسائر واضعي الحكم، فقد كانت نفسه كبيرة، وآلامه تتعدي آلام الناس، فجاءت على هيئة قدر كتبه الله عليه، استجابة وخضوعاً لقدره، رغبة في استجلاب الصبر، فربما قارن بين حريته وبين أثر السجن فقال مخاطباً الكبل :

تعطَّف في سَاقِي تعطُّفَ أرقَمِ يُساورُها عضًّا بأنياب ضيغَمِ

---

[1]() الديوان ١٠٠.

[2]() الديوان ١٠٠.

وإنِّيَ من كان الرّجالُ بسيبِه ومــــن سَيفه في جَنةٍ وجَهَنَّم (1)

إنّه يخاطب القيد ويشبهه بالحية التي تمسك بفريستها (بأنياب ضيغم)، ولم يستطرد في عرض مشاهد الألم وما يعانيه داخل سجنه في جوف بيت متهدم بالٍ لا يليق بملك مثله، وقد كان يعيش في القصور، وتركيز الشاعر على (الأرقم) توظيفاً لما يعانيه من المنظور الشخصي، ولعل هذا الألم هو الذي دفع المعتمد إلى الإيجاز في هذه الصورة التي رأيناها وقد أنهكه الكبل وأرهقه الحبس،وأهلكته مشقات العزل.

إن المعتمد يرسم صورا عده للعذاب،متحركة كما أراد لها أن تسير،فهو يحدق في القيد طويلاً،وقد جلله الحزن المغرق في الألم، والذي رسمه كلما نظر للقيد،والحق أن المعتمد بأبياته كان يحمل هموم مملكته وليس همه فقط،فهو يصمت ويتوجع ، ويترك نفثات آهاته أثراً ترتسم بأبيات تنشد.

قَضى وطراً من أهله كلُّ نَازِحِ وكَرَّ يُداوي علّةً في الجوارحِ
سواىَ فإني رَهــنُ أدهم مُبهمٍ سبيـــلَ نجاتي آخذٍ بالمبارحِ(2)

إنه ينظر إلى الناس أحراراً يقضي كل منهم حاجته،أما هو، فهو مقيد رهن الأدهم، وليس لمثله نجاة،
فالعدل يتأرجح بين يدي الحاكم، فلا حقوق تعطى له كملك، ولا أحد يريد حريته ؛إلا أن الشاعر الحبيس، لا يخنق صوته لعل نداءاته تصل إلى من سجنه بالرحمة والشفقة في التعبير عن يقظة ضميره، من أجل ذلك
يوسع دائرة الألم.

أنبــــــاءُ أسرِك قد طبَّقن آفاقاً بل قد عَمَمْن جهات الأرض إقلاعاَ
سَرَتْ من الغرب لا يُطوى لها قدمٌ حتــــى أتت شَرقها تنعاكَ إشراقاَ

---

(1) الديوان ١١١.
(2) الديوان ٩٣.

فأحـــــرقَ الفجعُ أكباداً وأفئدةً وأغـــــرقَ الدَّمعُ آماقاً وأحداقاً
قد ضاقَ صدرُ المعالي إذ نُعيتَ لها وقيل : إن عـليكَ القيدَ قد ضاقَا
أنَّى غُلبتُ، وكنتُ الـــدَّهر ذا غَلبٍ للغالبين، وللسُّبَّـــاق، سَبَّاقَا
قلتُ : الخطـــوبُ أذلَّتني طوارقهاَ وكان عزميَ للأعـــداءِ طرَّاقَا
متى رأيتَ صروف الـــدَّهرِ تاركةً إذا انبرت لذوي الأخطارِ أرماقًا ([1])

ومن عميق ما في الأبيات من تلك الصورة الناطقة بجرعات الألم والحسرة، وترداد أصداء الأسر الذي يتراءى له وسط الأنات وبواعث العذاب التي أثرت في نفسية الشاعر تأثيراً عميقاً، حين ينتقل من مرحلة القيد إلى مرحلة الذيوع والنشر، ليسمع أخباره القاصي والداني، إنه حساس الشعور ترفُّ به الآلام، فيأتي بكلمات خفاقة، أحرقت أكباداً وأفئدة تواقة لحريته.

وبواعث عذاب شاعرنا جاءت من تجربة الحبس القاسية، فأصداؤها مدوية تتفاعل مع بواعث الألم إنه يريد أن يهب شعبه لكي يخلصه من قيده، كما خلصهم وتصدى لعدوهم الذي يتربص بهم عندما كان يزين ملكه، فالخطوب قد أذلته وأثرت فيه،وكأنّ أرزاء الدهر تجمعت لمحاربته، ووقفت حجر عثرة في طريق فك أثره.

ولعل هذه البواعث الأليمة المنبثقة من شعره،تحاول إيقاظ المواطن الأندلسي،لاستشفاف الواقع الذي يعيش فيه،وتفهم حقيقة الأسر،وبينما هو يتلظى بنيران الأسر، نراه ينسب كل شيء إلى صروف الدهر وهي ترمق إليه ويرجو الخلاص منها فلا تتركه لحاله.

وكأن المعتمد يسمع أخباره على ألسنة الناس،فيزيده عذاباً على عذاب،ويرى الأندلس شرقها وغربها، غارقة في صراخ يستنهض الهمم،لكونه يعيش معاناة بلاده المنكوبة بالغزو، فيتحسس أوضاعهم وقضاياهم،فتعظم في حناياه الألم.

وحين يذكر المعتمد الدهر يشير إلى طبيعة حالته النفسية الكئيبة، تلك الحالة التي اضطربت لمحاولة مقاومة الدهر وإعمال إرادته، ولكنه لم ينتصر عليه، لذلك يصطدم الشاعر بالواقع الحقيقي أو بالحقيقة الواقعية حين يتعرف

---

[1] الديوان ١١٠.

على الحجم الطبيعي لإرادته التي لا تصمد إلا قليلاً، فتضطره إلى التسليم والفرار خاصة في هذا الجو الكئيب الذي سيطر عليه الحزن والألم والحبس.

وكأنه بذلك يخلق لذاته الشاعرة فرصة للتصوير الفني لتقلبات الدهر فيضرب بذلك مثلا لتقلبه ((والشّوكُ ينبتُ فيه الورَدُ والآسُ))،عندئذ يسقط ما يدور في نفسه على ما وجده من تقلبات الدهر، ليصور موقفه منه ويأسه وحزنه وفراره منه إليه، لذلك ألح على تحديد موقفه منه،مما شجعه على تلك الوقفة التي هيأت له
مراجعة نفسه.

من يصْحبِ الدَّهرَ لم يعدم تقلُّبَه　　والشّوكُ ينبتُ فيه الورَدُ والآسُ
يَمــــُرُّ حيناً وتَحلُو لي حوادثُه　　فقلَّما جــــرحتْ إلا انثنتْ تَاسُو([1])

ويبدو أن نفور المعتمد من كل شيء حوله جعله يفقد الأشياء معانيها،فلم يعد يأبه بما سبق أو اعتزَّ به وعاش جزءاً من حياته الملكية،لينتهي من تلك الصور المكررة للدهر بعد أن أزله، ليجعله مدخلاً لتصوير
حالته النفسية.

قُبِّحَ الدهرُ فماذا صنعـــا　　كلَّمـــا أعطى نفيساً نزعاَ
قد هوى ظُلما بمن عادَاتهُ　　أن يُنادى كلّ من يهوى لَعَا
مَنْ إذا الغيثُ همَى منهمراً　　أخْجَلتــــــــهُ كَفُّه فانقطعَا
مَنْ غمام الجود من راحتِه　　عصفتْ ريـــحٌ به فانقشعَا
من إذا قيل الخَنَا صَمَّ وإنْ　　نطقَ العافُون همساً سَمعَا
قل لمـــــن يطمع في نائله　　قد أزالَ اليأسُ ذاك الطمعَا
راح لا يمـــــلكُ إلا دعوةً　　جَبَر اللهُ العُفَـــاةَ الضُّيَّعَا ([2])

بدأ المعتمد يعي حقيقة موقفه من الدهر، حتى يستفيق من غفلته، حين أدرك أنه لا يتركه دون أن يقتص منه، مما دفعه إلى التخوف من أرزائه، حينئذ أدرك أنّ الدهر قد سيطر عليه وتحكم فيه، ولا ننسى أنّ المعتمد يعيش واقعاً

[1]() الديوان ١٠٧.
[2]() الديوان ١٠٨.

نفسياً فيه ما فيه من الاضطراب، فسرعان ما يصدمه الواقع الجديد، حين تلح عليه ظروفه النفسية الكئيبة فيلجأ إلى الدهر ليشكو إليه همومه، فيقسو عليه فيظلمه ظلماً فادحاً كما قال: (كلَّمـــا أعطى نفيساً نزعا)، وهذا هو ما تعود منه المعتمد، فيحدد رد الفعل الطبيعي في منظور الشاعر حين يقول : (أن يُنادى كلّ من يهوى لَعَا) ليكشف عن غوايته في إيقاع الناس في أرزائه، وهو موقف ينمو ويتطور من خلال الصور ليكشف عن ألم المعتمد الزائد على النفس فلجأ يناجيه، فذكر من الأسباب ما يؤكد أقواله، فالغيث قد انقطع من كثرة أفعاله الظالمة، والجود قد أصابه الانقطاع والقحط بسبب تقلباته وأفعاله الظالمة،.... مما يساعده على تصوير ما في أعماق نفسه من حزن وكآبة.

أبي الدهرُ أن يقْنى الحياءَ ويندمَا ... وأن يمحوَ الذّنبَ الذي كان قدَّمَا
وَأن يتلقَّـــى وجهَ عتبَى وجهُهُ ... بعُذْرٍ يُغَشّي صفحتيه التَّذَمُّمَـــا
ستَعلمُ بَعدي مـــن تكونُ سيوفُه ... لإلى كلّ صَعبٍ من مَراقِيك سُلَّمَا
سترجعُ إن حاولــتَ دونيَ فَتكةً ... بأخْجلَ مـــن خدّ المُبَارِزِ أحْجَمَا[1]

والظاهر أنّ الدهر لم يغفر له زلاته حين عرض عليه واقعه النفسي الخاص به، فلم يستنكف أن يعيد من تكرار بعض الصور، أو بمعنى أدق ـ من الإفادة منها كلما سنحت له خاطرة تصويرية ـ حين يرصد المعتمد طبيعة الصراع مع الدهر، وموقفه العدائي منه، يبدو امتداداً طبيعياً للشعراء من قبله وفي عصره، أليست العداوة حداً فاصلا تحول دون تحقيق لدى أي من الشعراء.

ولعل تكرار الصور والإفادة منها على هذا النحو يجعله يستعطف الدهر حتى يكفَّ عنه ويعتذر له،ولكن اعتذاراته باءت كلها بالفشل كلها،ولم يكن أمامه فرصة إلا المجابهة له، وكيف يقوى على ذلك ؟

وعلى مستوى الأبيات لا نستطيع الزعم بأن المعتمد قد قصد بها إلى معارضة الدهر،ولكن الإشارة تبدو
ضرورية لإظهار حجم الواقع النفسي للمعتمد،ذلك أن مشهد الأسر يظل مهيماً عليه لبلورة همومـــــه حين
تجتمع عليه،فيذكر من ماضي شبابه نعيم الحياة وترفها،وتشغله منها تفاصيل الصور التي سرعان ما يعقد بينهما المقارنة وبين آلام حاضرة،وما يشيع فيها من متاعب يعانيها ويضيق بها،فراح يصب جام غضبه
على الدهر،العداء الذي يحكم علاقته به.

---

[1]() الديوان ١١٤.

وتبقى لوحات الأسر تلاحقه مكررة حيث يسترجع تصوير المجد كمسلك هروبي،يتمنى أن يتجاوز به حاضره، وأن يعود عبر حواجز الزمن إلى ماضيه،فما كان العز إلا إيذاناً بمزيد الاكتئاب، وهو استرجاع لا يجد فيه الشاعر رفقة إلا همومه التي تكاد تزاحمه داخل محبسه.

من عَزَا المجدَ إلينا قد صدَق | لم يُلَمْ من قال، مهما قال حَـقْ
مجدُنا الشّمسُ سَنَاءً وسنـــا | من يَرُم سَتْر سَنَاها لم يُطِـــــقْ
أيّها النَّاعي إلينا مجـــــدَنا | هل يضيرُ المجدَ أن خطبٌ طَرقْ
لا تُرَع للدمع فـــــي آماقنا | مزجَتْه بدمٍ أيدي الحُـــــــرَقْ
حَنِقَ الـــدَّهرُ علينا فسطَا | وكذا الدَّهرُعلى الحرّ حَنـــِقْ
وقديما كِلـــــفَ الملكُ بنا | ورأى منَّ شُموشاً فَعشِـــــــقْ
قد مضى منا ملوكٌ شُهرُوا | شُهرةَ الشَّمس تجلَّت في الأفُقْ
نحن أبناءُ بني ماء السَّما | نحوَنا تطمحُ ألحاظُ الحــــدَقْ
وإذا ما اجتمـــع الدّين لنا | فحقيرٌ ما من الدّنيا افْــــترقْ ([1])

فنحن أمام ملك سلب ملكه،كان المجد عزه، مثل الشمس انتشاراً وسناء وسنا لم يخف ضوءه،.... فراح يصور من منطق الحزن والكآبة حالته النفسية، فما كان التّذكر عنده إلا إيذاناً بمزيد من الاكتئاب والتشاؤم من الدهر، وهو استرجاع للماضي لا يجد فيه رفقة إلا همومه التي تكاد تزاحمه،إذا استعرنا صورة المجد الذي صنعه من خلال فترة حكمه.

وعلى هذا التصور يمكن التحقق أن ثمة رصيداً سابقاً تعرفنا عليه من خلال حالته النفسية التي عاشها في القيد،وقد ظهر حرصه على المزج الدقيق بين ثقافته الفنية الراقية وبين حسه في تلك الفترة التي عاشها كملك،تلك الفترة التي ذاع صيتها وكثر حولها الحديث والجدل،ليصحح فيها الواقع التاريخي ليخفف حالة الاكتئاب والحزن الذي يعيشها المعتمد.

ولم يغفل التاريخ هذه الحدث الجلل الذي صوره المعتمد،ولكنه أضاف من خلاله رؤيته الخاصة، حين نظر إلى أبعاد محنته، فكانت لها صداها في كثير من الأبيات التي انتشرت فيها أصداء محنته، ولم يقف شاعرنا هنا على المفاضلة بين العز والمجد والسجن والقيد اللذين يعيشهما المعتمد لأن الاختيار يكون في جانب العز والمجد.

وحين أبصر الآهات ترتسم على وجه زوجته اعتماد في سجن أغمات،غاب في عالم اللاوعي الحزين،وإذا بشفتيها تتمتم ((لقد هنا هنا...)) فبدا من خلاله

([1]) الديوان ١٠٩.

صفحة الألم بمحيّاه المترامي تحت سياط الأسر،وما أن اجتمعت في عقله الباطن،تلك الأفكار التي أطل الشعر ينشد مع قيثارة الألم،فقال:

قالت : لقد هُنَّا هُنا　　　مَولاي، أينَ جاهُنَا
قلتُ لها : إلى هُنا　　　صيَّرنـــــا إلا هُنَا (١)

ولعل هذه الأنغام الحزينة المنبعثة من سرِّ ضميره،تحاول رسم صورة لما يعانيه،وتفهم حقيقة البركان الذي ينبعث من صدره الحران فيبديه، وكأن المعتمد يسمع هذا كله فيزيده عذاباً،لتغرقه في عالم النسيان خلف القطبان،وغير عجيب أن يكون المعتمد له موقع خاص في نفس زوجته،لكونه يعيش معاناة أليمة بعدما كان يتنعم بالنعيم.

ذلك ما يفعله الحب، وما تبدع به مخيلة المعتمد، فهو ينظر ويبصر أحلاماً من تلك الأيام الماضية، وكأنه عاش آلاف الأعوام مع تلك الحبيبة التي أدخلت عليه السرور، لتتنكر كل ذلك وتنظر إلى حال واقعها البئيس، وقد حاول جهد طاقته أن يوجه أحاسيسه،وأن يصرفها عن المرارة،ولكنها أبت أن تعيش معه الأسى، مما جعل شعوره تطبع بالتذمر من الدهر، بل بالثورة عليه دون أن يلم بشيء من يأس وقنوط.

أ ـ جوده وهو أسير :

قضى المعتمد حياته في ظل العظمة يطلبها لنفسه، فكانت شغله الشاغل قبل الأسر، وكانت تتمثل له في القوة السلطان، وفي الملك والجاه، لهذا ملأ الشاعر الأندلس جوداً وهذا ما لمسناه من أقواله حين كان مالكاًً ولديه آمال جسام.

ولئن فتر الجود وهو في الحبس مقيد محدود، فإن حديثه عن الجود لم ينضب وهو داخل محبسه، وكأننا نعرض لناحيتين اثنتين : ناحية الألم المتنفس عن الفقر والجوع، وشكوى وعتاب ودغدغة آماله في الكرم والسخاء، وناحية السخط على حاله المرهون بحبسه داخل السجن وقيده، فحين كان المعتمد أسيراً بأغمات وفد عليه شاعره الدانيُّ، فبعث إليه بعشرين مثقالاً، ومعها هذه الأبيات:

إليكَ النّزر مـن كفِّ الأسير　　　فإن تَقْبَلْ تكُـــن عينَ الشَّكورِ
تقبَّلْ مـــــا يذوب له حَياءً　　　وإن عَذَرتْهُ حـــالاتُ الفَقِيرِ
ولا تَعجب لخطب غَضَّ منه　　　أليس الخسفُ مـلتزِمَ البـدورِ
ورجّ بجبْرِه عقبى نـــــداهُ　　　فكم جبرت يــــداه من كَسِيرِ

---

(١) الديوان ١١٤.

وكم أعلت عُلاه من حضيضٍ وكم حطَّت ظُبـــــاهُ من أميرِ
وكم أحظى رضاهُ مــنِ حظيّ وكم شهرت علاهُ من شهير
وكم مـــــــن منْبر حنَّت إليه أعالي مُرتقاهُ ومـــــن سَريرِ
زَمانَ تنافست فـــي الحظّ منه ملوكٌ قد تجورُ علـــى الدّهور
زمـــــانَ تراجعتْ عن جانبيه جيادُ الخيل بالمـــوت المُبيرِ
بحيث يطيرُ بالأبطـــــال ذعرٌ ويُلفَى ثَمَّ أرجــــح من ثبير
فقد نظرت إليه عيونُ نــحسٍ مَضَت منه بمعـــدوم النَّظيرِ
نحوسٌ كُنَّ في عقبى سعــود كذاك تَدور أقــــدارُ القدير ([1])

فلم يكن المعتمد ليخضع للفقر أو يستسلم للبخل، بل أبى أن يظهر عليه ويوليه مقتاً واحتقاراً حتى بالنذر القليل، فكبرياؤه متعالية،وإرادته في مسايرة الكرم متواصلة،وكأن ذل القيد وعوز الفقر أنمى فيه خصاله الكريمة، فلم ينقطع عن جوده حتى لو أدى ذلك إلى اعتصار نفسه، ليستخدمه في مسايرة الكرم، والنزوع أبداً إلى كل سام رفيع.

ولا يخفى ما في الأبيات من اقتناع بقدرته على الجود، ويحتقر الزمان المتكالب عليه، فيقارعه ويقرعه ويقهره، وتنشأ جراحات الماضي فلا ينحدر إلى مستوى الناس في تقتيرهم أو إلى الضعف والاستسلام إلى آلامهم، إلا أنه قد يعجز أحياناً عن كبت فقره وعوزه فيرسله في قالب حكم وآراء مثل قوله:

وكم أعلت عُلاه من حضيضٍ وكم حطَّت ظُبـــــاهُ من أميرِ
وكم أحظى رضاهُ مــنِ حظيّ وكم شهرت علاهُ من شهير
وكم مـــــــن منْبر حنَّت إليه أعالي مُرتقاهُ ومـــــن سَريرِ

وكأن الحبس أيقظ عاطفة المعتمد وهاجها، فهو يكبت ألمه وحزنه ويدعه يتسرب إلى أعماق ذاته وقلبه،ولا يزال يكتمه ويكظمه، حتى يصبح في حزن دائم ويأس، فيعجز عن قهر نفسه، فيثور حزنه ويجيش ثم ينفجر ملتهباً جباراً ولاسيما عندما لا يرى ما يبذله من الجود ، فمن لا يشعر بحرارة هذه الصرخات الأليمة المتفجرة من صميم قلب جريح يائس؟.

ولم يكن المعتمد في حاجة إلى تضخيم الألم، فقد كانت نفسه كبيرة وآلامه تتعدى آلام سواد الناس، فجاءت حُكمياته في صدق تعبيرها، بليغة الأثر، عميقة المعنى، تنبض بالعاطفة، وتتجلى فيها آلام النفس البشرية حين يتمنى تراجع الأيام لكي يشهد للناس جوده مرة ثانية كما كان في غابر الزمان.

---

[1] () الديوان ١٠٣، ١٠٢

ب ـ بكاء قصوره:

جاءت وقفة المعتمد أمام قصوره بمثابة تنبيه إلى سوء حالته النفسية، فيصطدم بالواقع الحقيقي أو بالحقيقة حين يتعرف على الحجم الطبيعي لإرادته التي لا تصمد إلا قليلاً، فهي تضطره إلى التسليم والفرار، خاصة في هذا الجو الكئيب الذي سيطر فيه الحزن والألم، وفي أثناء سجنه رأي أن يعرج على قصوره حين وجد فيه من الحزن والألم ما يتفق مع قصوره ويخيم عليها، بعدما غادرها مكرهاً،فتشتاق إليه كما تشتاق كل ذرة في مملكته، لذلك حاول أن ينفذ إلى قصوره إلى أمرين :

الأمر الأول: أن يجد العزاء لقصوره، حيث يضمن تجاوبها معه، نظراً لما يوجد من تشابه بين واقعه النفسي وواقع القصور، وعندئذ يسقط ما يدور في نفسه على ما وجده في ذاكرته من ذكريات ملأت وجدانه.

الأمر الثاني : أن يخلق لذاته الشاعرة فرصة للتصوير الفني لما تحويه هذه القصور من صور محفورة في ذاكرته، وأن يمنح تلك الصور من الخلود ما يجعلها تعيش في ذاكرتنا حتى اليوم،وتلتصق بمأساته.

وقد عبَّر المعتمد عن بكاء القصور، وقاعات الاستقبال التي زاد فيها من الزخارف حتى فاقت الخيال، عبَّر عن ذلك في أبيات تمتزج بالخواطر الحزينة،نظمها أثناء أسره في أغمات:

بكى المباركُ في إثر ابن عبّاد   بكى على إثر غِزلان وآسادِ
بكت ثريّاهُ لاغُمّتْ كواكبها   بمثل نَوْءِ الثريّا الرائح الغادي
بكى الوحيدُ،بكى الزَّاهِي وقبّتُه   والنهرُ والتّاجُ،وكلُّ ذُلُّهُ بادي
ماءُ السماءِ أبنائه دِرَرٌ   يا لُجَّةَ البحرِ دُومي ذاتَ إزيادِ([1])

كما نلمح قوافي الشاعر المكتظة بالأنَّات المحمومة وسط سجنه الموشح بالدموع،تذكر كيف كان يجلس في وسطها، فبواعث الحنين تشكل هذه الأبيات،إنه يسترجع في خاطره أصداء الماضي، فقصره المبارك المنهوب فيبهره منظره وهو يتنزه في شرفاته أثناء الملك، فتنحدر نفسه من علو

([1]) الديوان ٩٥.

شاهق،شوقاً إلى البلاد التي غادرها قهراً،ولا تزال صورتها مطبوعة في نفسه،لا تغادرها ولا تبرحها،ما دام في جسمه عرق ينبض بالحياة.

وكأن المعتمد تطارده الذكريات، فيزيده عذاباً على عذاب،وهو يرى قصره غارقاً في صراخ يستنهض الهمم،لكنه يعيش معاناة مملكته المنهوبة،وعن تفاعل البواعث الدفينة في نفسه وقصوره المنهوبة،التي نشرت غصة في صدر الشاعر،ولّدها تصديه للواقع الأليم،لتتفاعل في صدره تلك البواعث الممزقة لأعماق أحاسيسه،وهو يذكر قصره المسجَّى في أحشائه،فتعظم في حناياه أهمية الألم،بعد أن انكسر الملك والجاه والقيم،فا نقطع الوتر العازف للهوه،فأي مسلك يسلكه ليستعيد مجده،حتى تستريح ضلوعه المضطربة بجمر غصة جسَّد ذلك المعتمد حين خلع الملك ولبس العذاب القهر،كما يخلع النهار ثوب الشمس المشرقة،ليستحيل بعد ذلك ليلاً في الظلام غارقاً.

ذلك ما يفعله الهم والحزن في ملك أثّرت فيه الأحداث،فابتدعته مخيّلة ابن عباد،إنه يرى كواكب الدنيا تنطفئ ويغيب نورها إلى الأبد، وأنّى ينظر يبصر ظلاماً يلفُّ بصره بالعمى، ولا يبقى غير قلبه الخافق بنور الذكريات الساطع من تلك الأيام القريبة للملك المترعات في النعيم من كل شيء آت،وكأنه عاش آلاف الأعوام في ذلك القصر التي ملَّت أيامه الخوالي بين الشرفات،فانكفأت تردد آهات وأسى وتبكي معه.

ولم يكن المعتمد بن عباد أول ملك أنزل عن عرشه، وانتزع التاج عن رأسه، وسير مع حرمه ومــــــن تبقى حياً من أولاده يتبعن أسره، أسيراً يرسف في الأغلال ليتحسر على أيام الغرام،، فقيراً بعد غنى، ذلّ بعد عز، ولكن المعتمد كان من طراز خاص، خاض التجربة بعزها وذلها وعبّر عنهـــــا بقريحته السيالة، لتبقى أبد الدهر تجربة تروى للأجيال، ليموت غريباً في رمسه.

هذه لمحة عابرة من لمحات شاعرنا المنكفئ على بواعث العذاب داخل تجاربه النفسية القاسية،الضاغطة على تفكيره العميق الأسى، المحيطة بكل أحاسيسه المرهفة، وقد حاول جهد طاقته أن يوجه أحاسيسه إلى أيامه الخوالي، على الرغم من أن نفسه أبت إلاَّ أن تعيش الأسى المنبعث من تحت ضلوعه المنكسرة.

إن تجربة المعتمد مثال حيَ لمأساة كانت تتجدد يوماً بعد يوم على مدى سنوات سجنه، وكان ذلك بمثابة عاصفة مدمرة أطاحت بعرش البهاء والعزَ

الذي تربع عليه. وكان ذلك بعد نفيه إلى أغمات على يد يوسف ابن تاشفين.

فلقد آلمه القيد، وتغير الزمان عليه في الغد، ونكست راياته الشجانة التي كان يستظَل بها منذ دخل السجن، وهو يعاني الآن ثقل القيد وذلّ الأسر، لا تثقل بثقلها المعدني فقط، بل تثقل على نفسه وروحه بالذَل الذي غمسته فيه .

وقال وهو أسير يأسى على قصوره،وكتب بها إلى ابن حمديس الشاعر:

غَريبٌ بأرض المغربين أسـيرُ ... سيبكي عليه منبرٌ وسريرُ
وتَندُبه البيضُ الصَّـوارمُ والقَنا ... وينهـلُّ دمـعٌ بينهن غَزيرُ
سيبكيه في زاهيه والزَّاهـرِ النّـدى ... وطُلاَّبُهُ،والعرفُ،والعرفُ ثَمَّ نكيرُ
إذا قيل في أغمات قد مـات جـودُه ... فمـا يُرتَجَى للجود بعـدُ نُشورُ
مضَى زمنٌ والملكُ مُستأنَسٌ بـه ... وأصبـحَ عَنه اليوم وهـو نَفُورُ
برأيٍ من الدَّهر المضلَّل فـاسدٍ ... متى صلَحت للصالحين دُهـورُ
أذلَّ بني ماء السماء زمـانُهـم ... وذُلُّ بنـي مـاء السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكـاءٌ عليهـمُ ... يفيضُ على الأكبـاد منهُ بُحورُ
فيا ليتَ شعري هـل أبيـتنَّ ليلة ... أمامي وخلفي رَوضـةٌ وغَديرُ
بُمنبتَة الزَّيتُون مـوروثةِ العلا ... تُغنّي قيانٌ أو تَرِنُّ طيـورُ
بزاهرها السامي الذّرا جَادَه الحيا ... تُشيرُ الثُّريَّا نحـونَا ونُشيرُ
ويلحظُنا الزاهي وسعـدُ سُعوده ... غُيورَين والصَّبُّ المحبُّ غيورُ
تُراه عسـيراً أم يسيراً مَنَالُه ... ألا كـلُّ ما شاء الإلهُ يَسيرُ
قضى الله في حِمصَ الحِمامَ وبُعثرت ... هنالك منَّـا للنُّشور قُبورُ (١)

وحين انتهى من مناجاة الدهر، لم يبق أمامه إلا التعزي لقصوره على الفور، فيعرّج على حالته النفسية وغربته بأرض المغربين مما هيأ له فرصة رؤية صور الماضي واضحة أمامه،فالبكاء والنحيب هما سمت التصبر والتشفي، وذرف الدمع الغزير هو نوع من التذكر، تنبض به الحياة،فبدأ يصور عظمة المعتمد وتصوير مجده وتضخيم الجود الذي يستظل به في ملكه السالف، وكأنه يستشعر النغم الحاتمي الأمر الذي يذكرنا بمواقف كانت دالة على عظمة المعتمد، إنه يأبه بما سبق أن اعتزّ به وكان جزءاً من كيان

(١) الديوان ١٠٠، ٩٩.

مملكته،،لينتهي من تلك الصور إلى عرض تأثير الدهر في هذه الآثار التي لم يفنها،ليدخل من ذلك إلى تصوير حالته النفسية التي سبق أن صور موقف الدهر منها،وكأنَّ قصوره تحولت بعد تركها إلى أماكن مقفرة،بعد طول الأنس الذي شهدها،فقد انتهى كل شيء إلى خراب،وكأنها أصبحت قبوراً لاتكاد تسمع منها صوتاً،ولا تحس فيها حركة،ثم يتوج المعتمد المشهد بعرض الموقف الذي يصوره لذاته المنهارة،حيث يزعم أن أعراسه تحولت إلى مآتم،وهو بذلك ينسب همومه وهموم قصوره إلى الدهر،وبذلك تنتهي عنده صورة الزمن إلى النهج العدائي الذي يحمله المعتمد له.

ويتمنى الشاعر أن تأنس به قصوره كما كانت من قبل،وهو يراه عسيراً غير محقق،على الرغم من اطمئنانه إلى بطولته التي لم تقهر أمام الدهر ودوره في كشف الأبعاد النفسية التي عاشها الشاعر في أزمته،ومن هنا بدت قدرته الفنية على التصوير وتعميق الصورة وتكثيفها مدعمة بالحكم،حيث تأتي بدلالاتها العامة الشاملة لتربط مشاهد سابقة بأخرى لاحقة.

ويلحظُنا الزاهي وسعـــــدُ سُعوده   غُيورَين والصَّبُّ المحبُّ غيورُ
تُراه عســــــــيراً أم يسيراً مَنَالُه   ألا كــــلُّ ما شاء الإلهُ يَسيرُ

فهو لا يجد من معادل موضوعي لحالته إلا في صورة قصوره التي أصبح الرجوع إليها أمراً عسيراً ـ على حدّ قوله ـ فكانت انتفاضة نفسية،ليخرج علينا الشاعر في نهاية المطاف بوثيقة قدرية الله عزّ وجل، وعلى المستوى الفني تسجل طوابع المعتمد بإيمانه بالقضاء والقدر،ليخفف ما يترامى له من أبعاده النفسية.

ومرَ عليه في موضع اعتقاله سرب قطا لم يعلق لها جناح، فراح يناجيها بآهات اللوعة والأسى لفراق مجده الغابر، وانحدرت دموعه على خديه كالنهر الجاري، وهي تمرح في الجوَ سوارح، فتواسيه وما يقاسيه من كبله، ويعانيه من وجلة , وفكر في بناته،وافتقارهن إلى نعيم عهده، وحبور مجلسه ومقارنته بحبسه، فقال:

بكيتُ إلى سرب القطا إذ مَرَرْن بـي سَوارِحَ، لا سجنٌ يعوقُ ولا كبـــلُ
ولم تكُ ـ واللهُ المعيذُ ـ حَســـــادةً ولكن حنيناً أنَّ شَكْلي لها شَكْـــــلُ
فأسرحُ، لا شملي صديعٌ، ولا الحَشَا وجيعٌ، ولا عيناي يُبكيهـــــما ثُكلُ
هنيئاً لها أُنْ لم يُفرَّق جميعُــــــها ولا ذاق منها البعدَ من أهلها أهـــلُ
وأنْ لم تبت مثلي تطيرُ قلوبُـــــها إذا اهتز بابُ السَجن أو صلصل القُفلُ
ومـــــــا ذاك مما يعتريني، وإنما وصفتُ الذي في جبْلَةِ الخلق من قبلُ
لنفْسِي إلـــــى لُقيا الحمام تشوّقٌ سوايَ يُحـــبَ العيش في ساقِهِ حَجلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القَطَا في فراخــــــها فإنّ فِراخِـــــي خانَها الماءُ والظَلُّ (١)

وهذه الأبيات لها علاقة بزيارة الأديب (أبي بكر بن اللبانة) وهو أحد شعراء دولته، فتطرح خلاصة رؤية وفلسفة حياة من خلال ما امتلأت به نفس صاحبها من إحساس بتضخيم كيانه أسهم في زيادته لديه تلك الغربة التي فُرضت على نفسه بعيداً عن ملكه، فلجأ إلى سرب القطا وهنَّ مررن به دون أن يعوقهن قيد ولا سجن، وهو لا يحسدهم الحرية لأنه كان مثلهم حرٌّ طليق.

فالصوت الانفرادي هو السيد الغالب على كل القضايا، خاصة حين يعلن تحوله إلى قضية الحرية،فلا يستنكف أن يعترف بالضعف النفسي ؛ بل يلح

(١) الديوان ١١١، ١١٠.

على عرض صور مختلفة لتأكيد حبس حريته، وكأنه يعكس بذلك موقفاً نفسياً وحبسه عن العالم من حوله، وكأنه آلف الاغتراب ومناجاة الذات.

وعلى هذا برزت مقومات الأسر كاشفة تنم عن رغبته الجامحة في التماسك، ليبدو شديد الاعتزاز بتجسيد وتصدير أزمته النفسية عبر رحلة السجن عبر سرب القطا، حيث نشر بين تضاعيفها فكرة الحرية، ولا يخفى رغبته الملحة في قهر الحياة، جاعلاً منها محوراً فعالاً لتلك التساؤلات الحائرة الكثيرة التي تطرحها رغبة منه في الوصول إلى الحجم الحقيقي لمكانته التي تضخمت حتى تصل إلى درجة قريبة من الكلام.

وقد تتسرب الحكمة على لسان المعتمد، فتوحي بدخول الوعي أو الفكر شريكاً للعاطفة،إذ يُعَدُّ مؤشراً أميناً يكشف عن طبيعة الموقف على ما يفيض به من الحس الحزين إزاء محنته،فيبدو شديد الحرص في حكمته تسجيل الصورة الواقعية لأسره،فيجب على الإنسان أن يقنع بحظه في هذه الحياة،ولا يلتفت إلى ما فات من ملك وعزة،ففي الله في كل مفقود عوض وسلوى له،فيجب أن يكون على ثقة بالله،

اقنع بحظك في دُنياك مـــــا كانَا وعزَّ نَفْسكَ إن فارقْتَ أوطـــانا
في الله من كلِّ مَفقودٍ مضَى عِوضٌ فأشْعِر القلبَ سُلوانا وإيمـــانا
أكُلَّما سَنحت ذكرى طَربتَ لـــهـــا مجَّت دُموعَك في خَدَّيك طوفانا
أمـــا سمعتَ بسلطانٍ شَبيهك قد بزَّتْهُ سُودُ خُطوبِ الدهر سُلطانَا
وَطِّن على الكُره، وارقُب إثْرَهُ فرجًا وا ستغنم الله تغنَمْ منـــه غُفرانَا ([1])

ومع اقتناعه بالحظ،واطمئنانه بحتمية القدر،فعلام البكاء على ملك زال وسجن حلّ،حيث تأتي بدلالتها العامة لتربط بين مشاهد سابقة وأخرى لاحقة، ولكنه يبدو في حاجة ماسة إلى إفراغ آلام نفسه وآهات حزنه من خلال هذا الحوار بواسطة الربط بين الماضي والحاضر.

([1]) الديوان ١١٥، ١١٤.

غَنَّتْكَ أغمـــــــاتيّةُ الألحان ثَقُلَت على الأرواحِ والأبـدان
قد كان كالثعبان رمْحُك في الوغى فَغَـــدَا عليكَ القيدُ كالثُّعبان
مُتَمدداً بحـــــذَاك كـــــلُّ تَمدُّدٍ متعطِّفـاً لا رحمـــــةً للعَانِي
قلبي إلــــــى الرّحمن يشكو بثَّه ما خَاب من يشكُو إلى الرَّحمنِ
يا سائــــــــلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغْنى شأنَه عن شَانِي
هاتيكَ قينتـــــه وذلـــك قَصرُه مــــن بعد أيِّ مَقاصِرٍ وقِيانِ
مـــن بـعــد كلِّ غَريرةٍ روُميَّةٍ تحكي الحمائِمَ في ذُرَا الأغصانِ(1)

فيطلق لسانه فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمانه، والألفاظ أنفاس حارة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة في انسجام، فإذا أمامك مشهد مؤلم،هو مشهد تتراءى فيه الذكريات،وصفات محببة إلى كل نفسه وأعمال غراء في أحداث الغبراء ؛ وإذا الشاعر ينطق بين المناجاة والرجاء،ومخاطبة الماضي المتمثل في شجاعته، فانقلب عليه كالثعبان، وهي مقارنة غير مألوفة من الشاعر، لتبدو أمامك الزفرات المتصاعدة المغلفة بأدعية تقف بين الفكرة والفكرة،كأنها شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

وتنتاب الشاعر في هذه الأبيات عواطف متباينة، يتولد بعضها من بعض، بتأثير شعوره بالحسرة على ملكه، ومعاناة المستحيل الذي يقطع صلته بقصرهً نهائياً، ونبصر الشاعر وهو يعاند الماضي، ويحاول أن يخفف ما به من حزن باللجوء إلى الرحمن ليشكو بثه وحزنه،فيشعرك أنه أمام قدر لا قبل له بصده فيحلّ في نفسه اليقين أو التخفيف من هول زوال الملك.

ويخيل إلى أن الشاعر ذهب بكل متعة ينشدها المرء، إلا أن المعتمد نلاحظ إقباله لعزه وإحجامه عن ذله، وهذا التنازع وتلك الحيرة هما اللذان يذكيان الانفعالات في نفسه، وليس لجوءه إلى الله إلا نتيجة لحالته والصبر على بلوته، هذا الحشد اللفظي،هو انعكاس للحشد النفسي وتألب عواطف الندم في حالته التي لا تعرف الندم.

(1) الديوان ١١٥.

جـ ـ تجربة الأسر وانعكاسها على أولاده:

١ـ بثينه بنت المعتمد بن عباد :

الأميرة التي شهدت مباهج ملك أبيها المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف، وكبير الشعراء الملوك وبطل الأبطال في معركة الزلاقة، والأسير بأغمات، الذي يشكل صفحات من المجد والترف والبطولة والإباء، وقد ورثت ابنته بثينه روحه الشاعرة، وورثت عن أمها الرميكية الحسن والجمال.

وللمعتمد في بثينة شعر كثير كان مشهوراً بالأندلس،((ولم يبق منه إلا هذه القصيدة الرقيقة التي بين أيدينا،فلما حلت النكبة به وأسر وحمل وزوجته إلى أغمات، وتعرض قصره للنهب والسلب، وكانت بثينة في جملة من سبي من نساء القصر وصباياه، فاشتراها أحد تجار أشبيلية وهو لا يعلم من أمرها شيئاً ظناً أنها واحدة من الجواري وأهداها لابنه، فلما أراد الابن الدخول بها امتنعت كالحرائر وأظهرت له نسبها وقالت : لا أحل لك إلا بعقد الزواج إن رضي أبي بذلك، وأشارت عليه وعلى أبيه بتوجيه كتاب منها إلى أبيها وانتظار جوابه، وكان هم أبويها لفقدهما أسوأ وقعاً عليهما من زوال الملك، فقد كانا متعلقين بها تعلقاً شديداً، فكتبت خطاباً فريداً في بابه بين الخطابات التي كتبت في التاريخ، لقد ضمّنت خطابها قصتها كاملة في نطاق من الفطنة وإطار من السداد وجعلت منه قصيدة موشاة بحكمة الشيوخ وكانت في عمر أزهار الربيع، مرنقة بالفخر الرائق وهي الأسيرة المغلوبة على أمرها، مفعمة بالصدق الذي كان ثمرة لعناية أبويها بتنشئتها عليه إبان الملك، فلنردد ما كتبته بثينة من قصتها إلى أبيها في سجنه، وما حفظه أهل المغرب ورووه لسنوات عديدة متتابعة قولها (١).

---

(١) انظر نفح الطيب ٢٨٤/٤، والأدب الأندلسي، د/مصطفى الشكعة، ١٧٢، ١٧١، ١٦٩.

اسمعْ كَـَـَـَـَلامي واستمعْ لمقالَتِـــــي فهِيَ السُّلُـــوكُ بَدَتْ مِنَ الأجْيادِ
لا تُنْكِروا أنّـــــــي سُبِيتُ وأنَّنِي بِنْتُ لِـمَلْكٍ مِـــــــنْ بَنِي عبّادِ
مَلِكٍ عظيــــــمٍ قَدْ تَوَلَّى عَـَصـْرُه وكـــــذا الزمـــانُ يؤولُ للإفْسَادِ
لَمَّا أرادَ اللهُ فُرْقَـــــــةَ شَمْلِـــنَا وأذَـاقَنَا طَعْمَ الأسى ولـــم يَكُنْ بِمُرادِ
قامَ النِّفَاق علــــى أبي في مُلْكِهِ فَـــدَنا الفِـــراق ولـــم يكُن بمُرَاد
فَخَرَجْتُ هارِبَةً فَحـــازَنِيَ امرُؤٌ لـــم يأتِ فـــي إعْجَـــالِهِ بسَداد
إذْ بَاعَني بَـيْــــعَ العَبيدِ فضَمّني مَـــــنْ صَانَنِي إلا مِـــــنَ الأنْكَادِ
وأرَادَنِي لزَوَاجِ نجــــــلٍ طاهـرٍ حَسَنِ الخَلائِقِ مِـــــنْ بَنِي الأنْجَادِ
وَمَضَى إليْكَ يَسُومُ رَأيَكَ في الرّضا وَلأنتَ تَنْظُرُ فــــــي طرِيقِ رَشادي
فَعَساكَ يا أبَتِــــــي تُعرِّفَني به إن كان ممّـــــــــنْ يُرتَجى لِودَادِ
وعَسى رَميكيةٌ المُلُـــوك بفَضْلِها تَدْعُو لنا بالـــيُمْن والإسْعَـــــــادِ

وأرسل المعتمد يصرح بزواجها ويضمنه هذه النصيحة الأبوية فقال:

بُنيَّتي كونـــــــي به برَّة فقد قضى الدَّهر بإسعافه ([1])

ب ـ ذكر بعض أولاده :

ومع أن هذه الابنة أثرت أبلغ الأثر في غربة المعتمد بعد الأسر، وقد لفحته نار مشتعلة على بناته، فاضطر للبحث عمّا يعوض عليه ذلك الفراغ القاتل، فلم ير أمامه إلا بناته بحالتهن الرّثة وتأملاته الحزينة، فيزده هماً فقال فيهن:

دعا لي بالبقاء،وكيف يَهوى أسيرٌ أن يطـــولَ به البقاءُ
أليس الموتُ أروحَ من حيـاةٍ يطولُ على الشقيّ بها الشقاءُ
فَمَن يكُ مِن هواه لِقاءُ حِـبٍّ فإنّ هَواي مـــن حَتفي اللّقاءُ

([1]) الديوان ١٠٨.

أأرغبُ أن أعيشَ أرى بنـاتي عَواريَ، قد أضرَّ بهـا الحَفاءُ
خَوادمَ بنتِ مَن قد كان أعلـى مراتبه - إذا أبـــدُو - النّداءُ
وطردُ الناس بين يدَي ممرِّي وكفُّهمُ إذا غَـــصَّ الفِناءُ (1)

هذه الأبيات المليئة بالمرارة التعسة المذاق، الممزوجة بدموع الألم العميق الأسى،التي تعبر عن حياة قاسية فرضها الأسر، إنه صرخ صرخة المفجع في ملكه وأولاده،المملوءَة بالأحزان والذكريات، وشظية من شظايا هذا القلب المحطم على صخور الأسر،فأحس أن كيانه كله يتساقط من حوله ففضل الموت على الحياة التي تطول على الشقي،وكأنه أصبح شديد الانصهار في حريق الألم وهو يرى بناته على حدّ قوله : (عَواريَ، قد أضرَّ بهـا الحَفاءُ، خوادم عند من كان من رعيته).

وإذا دققنا النظر في هتاف المعتمد وهو ينادي كل شيء من حوله، فإننا نستنتج حقائق تضمنت معانيه، منها فحولة الصياغة المتلبّسة لشاعريته المتمكنة من القصيد الحزين في موسيقاه البارع في تجميع معانيه في قصائده القصار، وتداعي الألفاظ الباكية الحارقة لخدود المعتمد بكل محرق وهو ينطق بشعر يبكي به القلوب والأبصار، كما أننا نلمس عفة تتمشى في شخصيته، وروحاً أخلاقية تحول بينه وبين أن ينهمك في بكائه فتظهر دموعه على خديه بسبب السجن والحصار، أو ينسى مصيبته الذي هزت كل من قرأ شعره في أيام الترح القصار الطوال، ومن ثمّ يبدو مطبوعاً بطابع الكآبة التي لا تستسيغ ما يتقبله الواقع من أحداث تخرج رغم أنفه من مألوف قريحته، ولا تندّ من متعارف ذوقه الذي أنضج ألفاظه الشعرية،في حوار فلسفي، مداره الحياة والموت والخلود والإهمال، والسرور والحزن،والملك والقيد،...أضداد تظهر مدى الفجيعة في سرح هذا الشاعر الفنان،وقد نظر إلى بناته وقد مرَّ عليهن العيد بأغمات،فأبت قريحته إلا أن تصور هذا المشهد المليئ بالآهات والأنات،ليقارن بين جنة ونعيم،وفقر وجحيم،وعز وذل،ولُبس وعري،وأسر وحر،.....

(1) الديوان ٩٠.

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً فساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتكَ فـــــي الأطمار جائعةً يغزلن للـــناسِ لا يملكن قطميرا
بَرَزْن نَحـــــوَك للتسليم خاشعةً أبصَــــارُهنَّ حَسيراتٍ مكاسِيراً
يطأن فــــي الطينِ والأقدامُ حافيةٌ كأنهـــا لــم تطأ مسكاً وكافورا
لا خـــــدَّ إلا ويشكو الجَدْبَ ظاهرُه وليس إلا مـــع الأنفاس مَمْطوراً
أفطرتَ في العيــد لا عادَتْ إساءته فكـــــان فِطرُك للأكباد تفطيرا
قد كـــان دهركَ إن تأمره ممتثلاً فردكَ الـــــدهرُ منهياً ومأمورا
مــــن بات بعدك في مُلك يُسرُّ به فإنمـــا باتَ بالأحلام مغرورا([1])

إنه صورة ناطقة لعذابه النفسي، تسير في متعرجات الضياع والفقر،فانطفأت شعلة الغنى، وأضاءت شعلة الفقر،يبرز للعيان عذابه النفسي ضمن سجن يقاسي مضضه،ويذوق مُره،إنها تتمةٌ لما سبق من العواطف المشحونة في ضمير الشاعر.

وإذا دخلنا موغلين إلى عالم الشاعر،المفعم بالذكريات في عالم ملكه الساحر، نجد تلك الجراح التي تختلج بأنفاسه، وهو يرى أولاده في حالة رثة مزرية، خاصة في البيت الرابع ليربط بين الماضي والحاضر الماضي وبناته يطأن المسك والكافور وبين حالتهنّ وهنّ حافيات، وشتان بين الصورتين صورة الطيب وصب عليه ماء الورد وعجن بالأيدي حتى عاد كالطين وخاضته الرميكية مع بناتها وجواريها، وبين طين عجن بالماء تطأه الأقدام كعامة الناس.

هذا المشهد أصاب كبد الشاعر، الملبدة بالمشاعر في تجسيد تصوير إنساني يمثل جزءاً من حياته التعسة المغموسة بدموع الأحزان، المغرقة بالألم في تأوهات الحياة، ولعلك تجد في كلماته من خلال القيود المفروضة عليه تبكيك،انظر إلى قوله: (ترى بناتكَ فــــي الأطمار جائعةً،يغزلن للـــناسِ لا يملكن قطميرا،...) فكان صوته مدوياً،تتجاذبه قوى قاهرة، خارجة عن إرادته، وتعتمل في داخله مشاعر متقلبة متضاربة، فيعبر عنها تعبيراً يبكي القلوب، وتشيب العقول قبل الأفول، في خضم هذه المحنة،وبراعة التعبير عمّا في

---

[1]() الديوان ١٠١، ١٠٠.

نفسه،فلا يلبث أن يشطح بنا في بعض أعاصير فقره،ويتناسى غناه وعزه.

وعتب المعتمد على ابنه الرشيد في طريقه من مِكناسَةَ إلى أغمات عتباً أفرط فيه، فكتب إليه الرشيد يستعطفه:

يا حَليفَ النَّدى وربَّ السَّماحِ　　وحبيبَ النُّفوس والأرواحِ
من تمامِ النُّعمى عليَّ التماحي　　لمحةً من جبينك الوضَّاحِ
قد غَنِينَا ببِشْره وسناهُ　　عن ضياءِ الصَّباح والمِصباحِ([1])

أجابه المعتمد:

كنتُ حِلفَ النَّدى وربَّ السَّماحِ　　وحبيبَ النُّفوسِ والأرواحِ
إذْ يمينِي للبَذْل يومَ العطايا　　ولقبضِ الأرواحِ يومَ الكِفاحِ
وشمالي لقَبضِ كلِّ عنان　　يُقْحِم الخَيلَ في مجَالِ الرِّماحِ
وأنا اليومَ رهنُ أسرٍ وفقر　　مُستباحُ الحَمِى مَهيضُ الجناحِ
لا أُجيبُ الصَّريخَ إن حضر النَّا　　سُ، ولا المعتفين يومَ السَّمَاحِ
عادَ بشرى الذّي عهدتَ عُبُوساً　　شَغَلَتنِي الأشجانُ عن أفْراحِي
فالتِماحي إلى العيونِ كَريهٌ　　ولقد كان تُرفَةَ اللّمَّاح([2])

هذا الاستعطاف من ابنه الرشيد، استطاع أن ينفذ إلى منطقة الرضا عند أبيه ـ من خلالها عرض إرهاصات الاعتذار ـ، فابتدأ بعرض مسوغات الندى والسماحة لدى أبيه، وتصوير الجوانب المضيئة، مما رقق القلوب في موازاة ما عرف عنه في عالم الثراء، وما شهده المجتمع الأندلسي من رخاء.

ومن حيث المحتوى تعالج الأبيات عدة جوانب مدحية عند المعتمد، وتصور رغبته الجامحة في إظهار هذا الجانب الإيجابي، لذلك يلح في إطلاق النعمى وتعميمها الذي ظهر في قوله:(تمام النُّعمى)، مما يبرز حقيقة النغمة

---

[1]() الديوان ٩٣.
[2]() الديوان ٩٤.

المدحية التي يمتلئ بها صدره، وقد واتته الفرصة لإظهارها لكي يرسخ استعطافه ليصبح مدوياً، وكأنه يستغل الموقف ليمحو هذا العتب.

أما من حيث المضمون فإن استعطاف الرشيد لأبيه، جعله يكثر من المبالغة في حقيقة الكرم، محاولاً بذلك تجاوز المستوى الفردي إلى مستوى جمعي، يمكن أن ينضوي تحت باب المدح من الابن لأبيه، ليجاهر بموقفه في الجود، محاولاً أن يؤصل له هذا الماضي العريق، لذلك راح يعدد بعض منابع الجود الذي يسجل ما عاشوه فيه من الثراء.

ودخل عليه ابنه أبو هاشم وكان أصغر أولاده وأحبهم إليه، وأحظاهم له،فرأى القيود قد التوت على ساقيه ورجليه، وكان العهد به جالساً على سرير الملك،فارتاع لذلك، فقال المعتمد:

قَيدي أما تعلمُني مُسلِمـــاً أبَيْتَ أن تُشفِـــق أو ترحَمَـــا
دَمي شرابٌ لك، واللحمُ قد أكلَته، لا تَـهشِـــمِ الأعظُمَـــا
يُبصِرُني فيك أبو هاشـــمٍ فينْثَني القلـــبُ وقد هُشّما
ارحم أُخَيَّاتٍ لـــــه مِثلَه جرَّعتهـــــنَّ السُّمَّ والعَلْقَمَا
منهنّ من يفهم شيئاً فـقـد خِفْــنَا عـليه للبكـــاء العَمى
والغيرُ لا يفهمُ شيئاً فمـــا يــفـــــتَـــحُ إلاّ لِرضاعٍ فما ([1])

ونظرة إلى ما جاء في هذه الأبيات، يبدو المعتمد سارحاً في قيد الأسر والألم والحزن، يحاول أن يحمل نفسه على قبول ما ابتلاه القدر،ضمن حياة قاسية فرضها السجن، وأخرجته عن قانون الملوك، وجعلت منه روحاً تهيم بالأحزان، فلا نلمح الرؤى سوى مواضع القيد، لتؤكد أن الشعر يصدر عن العاطفة الكامنة في حنايا الشاعر،كما يتبين لنا أن صوت النحيب سيطر على شاعرنا، فنفر من كل شيء، وينظر إلى الجانب السلبي من الحياة، ويعيش في السجن عن متع الحياة.

([1]) الديوان ١١٢.

وكأنه يركز على الفرح الهارب من حياته، فالقيد لا يتلطف به،والدامع عالقة بأهدابه، وابنه أبو هاشم يتماسك من البكاء على حال أبيه والقيد يطبق الخناق،على ورجليْ أبيه الجريحتين، تنزف دماً وتشتكي إلى الله، وقلب الشاعر شقي مظلم، يلف كل شيء من حوله، فتحولت كلماته صرخات معذّب، وجعلت شعره من ألفه إلى يائه ـ في أيام الترح ـ صرخات تئن بضغط الألم لذلك نرى أحزانه تتكرر بنسبة ما يتكرر الألم في حياته، فران الهم على صدره، وهو يصرخ حينئذ ويتألم.

يتألم عندما يرى أولاده يرونه في هذا الحال، وقد ألفوا النعيم الذي قد زال، فيجد صورة ناطقة بألم القيد، فيلقاه صابراً محتسباً، وقد جلله الحزن، وأضناه وجومه المبهم الصامت هذا الحُكم، المصغي لحشرجات الصدر وهو يحدق في حاله، فلا يرى انفراج وجمود القلب من بيده الأمر.

وهذا يدل على أن قريحته الشعرية لا تهدأ، فتلح عليه بالأسئلة الكثيرة،وعلى شاكلة هذه التساؤلات، كانت نفثات شاعرنا الحارة الجوى، تنطلق من نفسه المعذبة، تناجي ملكه من سويداء قلبه، الذي بَعُدَ عنه في عالم بعيد، فضاعت نداءات آلامه في ظلمة الليل الطويل الذي لا يسمع ولا يجيب، وبقيت منها تلك البواعث التي صورها شعره فأتقن التصوير.

فالفقر أقض مضجع المعتمد وأذاقه ألم الجوع والحرمان منذ سُلب ملكه ابن تاشفين، فليس بغريب أن تحتضن أفكاره أدق الصور في الذل والهوان، فقد لفه العوز بحرمانه، وطواه الطوى بكلكله وعنفوانه فدارت عيناه في السجن الذي يسكنه تبحثان عمّا يسدُّ الرمق فلا يجد لبناته ما يلبسونه ويدخل عليهن السرور وعيناه تنظران، وحالة كهذه لا بد للحزن أن يتسرب إلى ثنايا نفسه الحزينة البائسة الأليمة، ليطفئ في أحشائها آخر جذوة دفء تبعث الأمل في جسده، كأنه يبحث عن صدى الماضي السحيق، ومكابدة ملك عاش مع الثراء في الماضي القريب، يقاسي الويلات ويعيش متاعب الحياة.

إننا إذا قرأنا هذه الأبيات نسمع صوت المعتمد يخاطبنا من بين تضاعيف السنين الغابرة، والصواعق النازلة بألم الفقر وذل العوز الذي لا يزال ذكراها تضج في خاطره تعبيراً صادقاً عما يعيشه الشاعر الملك المهان.

وقال يرثي ولديه، وفيها يشير إلى قتل ابنه أبي عمرو سراج الدولة، يقول :

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر ... سأبكي، وأبكي ما تطاول من عُمري
هوى الكوكبانِ: الفتحُ ثم شقيقُـه ... يزيدُ، فهل عند الكواكب من خُـبر
نرى زُهرهـا في مأتمٍ كلَّ ليلةٍ ... تُخَمشُ لهفاً وسطَه صفحةُ البـدر
ينُحن علـى نجمين، أُثكلت ذا و ذا ... وأصبر؟! ما للقلب في الصَبر من عُذر
مدى الدَهـر فليبك الغمامُ مصابه ... بصنونه يُعذر في البكاء مدى الـدَهر
بعين سحـابٍ واكفٍ قطرُ دمعها ... على كلَ قبر حلَ فيه أخو القـطر
وبرقٍ ذكيَ النـار حتى كأنما ... يُسعَر مما في فؤادي مـن الجمر
أفتحُ، لقد فتَحت لي بـاب رحمةٍ ... كما بيزيدَ، الله قد زاد فـيَ أجري
هوى بكما المقدار عنَى، ولم أمت ... وأدعى وفياً،! قد نكصتُ إلـى الغدر
تولّيتُما والسنُّ بـعـد صغيرة ... ولـم تلبث الأيامُ أن صغَّرت قدرِي
تولَيتما حين انتهت بكمـا العُلا ... إلى غـاية، كلَ إلى غايةٍ يجري
فلو عُدتُما لا خترتُما العود في الثرى ... إذ أنتُما أبصرتمانـي في الأسـر
يُعيد علـى سمعي الحديد نشيده ... ثقيلاً، فتبكي العينُ بالـجسِ والنَقر (١)

تبدو الأبيات ذات انفعال وئيد متمهل، فنرى فيها ازدحام العواطف في حدود ما تقتضيه حاجة القول، فرثاؤه أقوى وجدانية من رثائه لحاله، الذي يصف غزارة الدمع، وعظم الخطب، فنسمع فيه رنّة العويل والنواح التي تطالعنا وهو يرثي ولديه (المأمون، والراضي).

وكأنه توسل بموتهما لعرض بعض أرائه في الحياة، ومع ذلك طبعت الأبيات بالفجيعة والشعور الحاد المتآكل لذاته، إلا أنه يغفل مآثرهما، فمما لا شك فيه أنه يعجب بمآثره، لأن الباعث الأهم هو باعث الشعور بالفقد، وكأنه سقط في هاوية الحزن، وهذا يبدو من خلال الكلمات (سأبكي،وأبكي، مأتم كل ليلة، ينحن على نجمين،..) فالكلمات مجسدة بالدمع، ملبسة من معاني الحزن، وبقدر ما ينهمر من الدمع يعظم الحزن وقد تعمد إلى تكرار ألفاظ البكاء التي

(١) الديوان١٠٦، ١٠٥.

تعبر عن الرثاء بلفظه المباشر، وكأنه يشعر بالضيق والاختناق، فتقهر قواها وتنهار، فحزن المعتمد على ولديه حزن مستمر في النفس. وشعر المعتمد.

والشاعر حين يرثي ولديه لا يرثيها لذاتهما، بل نراه يتفجع على الفضائل التي كانا يتحليان بها والتي يبدو معهما، وكأنه أدركا فيهما كل صفات الكمال، وبذلك يتحول بكاؤه عليهما بكاء على المصير الإنسان الذين لا تنقذه فيهما فضيلة أو مأثرة أو شجاعة، ولعل الفجيعة تتعاظم بقدر ما يعظم مصيبته، فكأنه ينحدر بذكره للأسر فيسقط في شاهق سقوطاً مدوياً.

وإذا اختص شعر المعتمد بالأسلوب التقريري الذي يعبر عن العواطف تعبيراً مباشراً، فإنها تميل حيناً إلى تعمق البكاء ومشاركة الآخرين معه في الحزن كمثل قوله:

مَعِـــــي الأخواتُ الهالكاتُ عليكما ... وأمَكُما الثَكلى المضرَمــــــةُ الصَدر
فتبكي بـدمــــــع ليس للقطر مثلُه ... وتزجرُها التقوى فتُصغي إلى الزَجر
أُبا خالدٍ أورثتني الـــــحُزن خالداً ... أبا النَضر مُـذ ودعت ودعني نصري
وقبلكُما قـــــد أودع القلب حسرةً ... تجدَدُ طول الـدهر، ثُكلُ أبي عمرو([1])

وكأننا نقع على مشهد واقعي للأم وهي تبكي على ولديها، تعاني عذابها في حدود غريزة الأمومة والأصوات القاتمة بالوحشة من أعماق نفسها، فكأن الشاعر أدخلها في المشهد لتكون الفجيعة أشد،ولا يجدي العقل في إخمادها وإخضاع كل من يسمعها للبكاء، فمما لا شك فيه أن بكاء الأم على ولدها أشد وأقوى،ليصف لنا الشاعر مدى العذاب كما شاهدته أو سمعة المعتمد.

أصبح رثاء المعتمد شديدة الانفعالات، فتمثل الحزن واليأس، دون أن يكون لها من العقل رادع يجدي فيها عوامل الحزن، فشعور الشاعر بمعاني الافتقاد لفراق ولديه ساقه إلى تعظيمه وإضفاء صفة الكمال، ولكنه لم يستطع الصبر

([1]) الديوان١٠٧.

عليهما، أو يكون هذا تأملاً للأحوال المتغيرة،فحوّل رثائهما إلى نوع من العويل مما يثير السامع بعظم الخطب.

ولمَا أحسَّ بدنو أجله،تداعت بنيته القوية،ودبّ فيها المرض، لم يعش طويلاً، وشاء القدر أن يذهب المعتمد إلى قبره مكلوم الفؤاد، موجع النفس،فقد فجع في أولاده، وفي زوجه، فشيعها إلى قبرها، دامع العين، مسلوب الإرادة، متأجج الحسرات، وفي هذا الجو الكئيب لم ينس رثاء نفسه بهذه الأبيات، ووصَى بأن تكتب على قبره :

قبرَ الغريب سقـــاكَ الرَائحُ الغادِي   حقاً ظَفِــــرتَ بأشلاء ابن عبَّـــادِ
بالحلم، بالعلم، بالنَّعمـــى إذا اتّصلت   بالخِصب إن أجدَبوا، بالرِّيَ للصَّادِي
بالطَاعن، الضَّارب، الرَّامي إذا اقَتتَلُوا   بالموت أحمــرَ، بالضِّرغامة العادي
بالدَّهرِ فـــــي نِقَمٍ، بالبحر في نِعَمٍ   بالبَدر فـــي ظُلَمٍ، بالصَّدرِ في النَّادي
نعم، هو الحــــقُ وافاني به قدرٌ   مــــن السَّماء، فوافَانِي لِميعاد
ولم أكن قبل ذاك النَّـــعشِ أعلمُه   أنَ الجبـــالَ تهادَى فوق أعوادِ
كفَاك فارفُق بما استُودعــت من كَرمٍ   روَّاك كُلُ قطــــوبُ البرق رعَّــاد
يبكي أخـــاهُ الذي غَيَّبتَ وابلَه   تحت الصفيح، بدمــع رائــح غادِي
حتَّى يجودَك دمـــــعُ الطلِّ منهمراً   من أعين الزهُّر لم تَبْخَـــل بإسعاد
ولا تزال صلـــــواتُ الله دائمةً   علـــى دَفِينـــكِ لا

تُحصى بتعدَاد (١)

الإنسان شديد التعلُّق بالحياة،يرى فيها الوجود،ويعمل جاهداً للحفاظ عليه،وإن لم يوفق المعتمد إلى السعادة في أيامه الأخيرة ؛إلا أنه في سرِّ نفسه يعلم أنه زائل،وأن الحياة السعيدة حلمٌ يمضي،فيقف متأملاً لرثاء حالته،وقد يؤدي به تأمُّله إلى فلسفة ترى في اللاوجود فناء،،ويرى فيه باباً لحياة أفضل.

ولم يكن المعتمد طاعناً في السن، فلم يصبه ذلك إلا من خلال مكثه في السجن، فيندب نفسه،ويشعر في قرارة نفسه أن الموت أمر محتوم على كل إنسان، فلم يروعه الشعور بالوحدة،وتستولي عليه الرهبة الكئيبة، لأنه يعيش في وحدة، إذا به يرثي نفسه، ويجد أنه أعزل أمام تلك السُنة الرهيبة، فينطوي على ذاته وفيه شيء من يأس وانكسار.

ولما كان الشاعر من أشد الشعراء انفعالاً كانت أبياته ألسنة رثاء تلوع أمام رقدة الموت في جلاء،إنه نوع من عزاء النفس،إذ نراه ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به التفكير إلى معان فلسفية عميقة، ومرد هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم، ويكفي أن يعترف بحقيقة الموت وأنه قدر لا يمكن الفرار منه في قوله:

نعم، هو الحــــــقَ وافاني به قدرٌ مـــــــن السَّماء، فوافَـانِي لِميعـــاد

والصور التي بين أيدينا من رثاء النفس صور راقية،إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم مثل قوله: (قبرَ الغريب سقـــاكَ الـرَائحُ الغـادِي، ولم أكن قبل ذاك النَّـــــعشِ أعلمُه،يبكي أخاهُ الذي غَيَّبتَ وابلَـه،.......) ومثل هذه التعابير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات مقدمة للموت بعد أن قدّم ما يُشْكر عليها في الحياة، فمثلاً صورة استسقاء الغيث لجدثه،عادة مقتبسة من خيالات الشعراء السابقين حيث يعز الماء ويندر وجوده. ويكفي أن يشير إلى نفسه بهذا القول الرائع التقسيم:

---

(١) الديوان ٩٦.

بالدَّهرِ فـــــــــي نِقَمٍ، بالبحر في نِعَمٍ بالبَدر فـــي ظُلَمٍ، بالصَّدرِ في النَّادي

ولا نرتاب في أن رثاءه في هذه الأبيات على الرغم من أن له صدى عند الشعراء، لكن الجديد عند المعتمد أنه أوصى أن تُكتب على قبره، تخليداً لذكره وتمجيداً لأعماله،وتعبيراً عن يقين اللحظة التي يعانيها،وقد انتقلت من نفسه وحلت في معنى الأبيات على قبره.

كما أن الأبيات تنزع النزعة الفردية، وذلك لأن نفسه لم تكن تنطلق إلى الشعور الاجتماعي، فتبدو وسيلة يجسد الشاعر فيها وحدته بحيث تتخذ الحالة النفسية شكلاً من أشكال الموت، وكأن الشاعر يكشف عن حقيقة الموت فيتصرف وقد سقط من الحالة الشعورية إلى حالة رثائية.

ولم يمض أياما قلائل حتى اشتدت العلة ولزم الفراش، ووصل للناس نعيه،وصعدت روحه الصافية إلى السماء، يحيط بنعشه الغريب وليس القريب، يعلو وجوههم الحزن، وتشتعل في قلوبهم اللوعة والحسرة، ثم صاروا به إلى قبره، فدفن في مقبرة أغمات،وصار أمره عبره في عصره فإذا حزنت لفقده، كما حزن أصفياؤه ومريدوه وعارفوه لمن كان في عهده، فإن حزننا أكبر وأعمق لأن موته، لم نفقد الملك الأندلسي فحسب ؛ وإنما فقدنا أيضاً خلالاً سامية نادرة.

وحين أغمض المعتمد عينيه مودعاً هذه الحياة مستقبلاً نور الله ورحمته، كان قد فتح أعيننا على أنبل القيم الإنسانية في الملك والصبر في الحياة،فأبرز لنا أجمل آيات المبدعين، وهدانا إلى حياته من خلال شعره رحم الله المعتمد رحمة واسعة وادخله فسيح جناته.

الفنية في ميزان النقد

شاع الشعر في الأندلس شيوعاً واسعاً،وانتشر في جميع الطبقات، فأنشده الملوك والوزراء والقضاة والعلماء حتى الناس في حدائق الأندلس الفناء،حتى نعتقد أنّ الشعر في الأندلس لغة الحياة وأنّ الحياة شعر وألحان وأنغام، بحيث يصبح ناطقا بلسان أهله، ويدع لنا مجال التصور حتى إذا تصورنا استيقظ فينا الشعور به وتأثرنا.

ومادمنا نتحدث عن فنية المعتمد الشعرية، صار لزاماً علينا أن نضع تلك الفنية في ميزان النقد، لأنّ الشاعر لا مندوحة له عن سلطان النقد الأدبي، فهو ليس شاعر ألفاظ فحسب، بل كان حدسه يرفده باللفظة الحية النابضة،وشاعر معاني ـ أيضا ـ يعبر عن الحواس، وما يطرأ عليها من أحداث.

ولا تكون الموازنة بين الحياتين ـ نقصد مشاهد الفرح والترح ـ كاملة إلا سلطنا الأضواء على الأبيات، وعرضنا للأفكار الجزئية فكرة فكرة، وما إلى ذلك من بديهات الموازنة، ومع التسليم بذلك فقد حاولنا الاقتراب من فنية الشاعر فاخترنا عدداً من الأبيات، إذ أن الموازنة باب من أبواب النقد.

فحين وصل المعتمد إلى الفنية في شعره،وجد في قصائده ميزة الاستنباط والابتكار، وأعلا كعب القوافي بصيغة سبقت الشكل الظاهر في الجرس الإيقاعي والنظم اللفظي إضافة إلى قوة شخصيته الفنية، وقدرته على التوازن والتنسيق.

فإذا دخلنا موغلين إلى عالم المعتمد المليء بالفرح والترح،المغمور بالذكريات والآلام المتغلغلة في شغاف قلبه الكسير، وتكدست حوله أسباب الشقاء فأشفق عليه كل من يراه حتى أعداؤه على سواء, لقد ذل بعد عز, وأسر مع أبنائه وأخرج من داخل القصر , وصفد بالأغلال على مشهد من أمته مكبلاً، وانتزع منه الملك وذهبت عنه دولته, والناس على طول الطريق شهود عيان، وسيق إلى سجنه بأغمات, تتبعه الزفرات والآهات.

ومن الطبيعي أن يكون العداء بين المعتمد والمرابطين بقيادة ابن تاشفين مستحكماً قويا، ولكن الذي يلفت النظر أن نصيب كلا الخصمين في الصراع

قليل، فالمعتمد لا يرى تفوقه في أتباعه بينما يرى خصمه في عكس ذلك، لذلك بدا المعتمد أكثر تلطفاً بينما نرى خصمه أكثر تشدداً، فأبي له أن يعيش مثل بقية العامة، وكان فقدان الملك أحدث له صدمه.

ملامح التشكيل الفني :

نقصد بها العناصر التي يقوّم بها الأسلوب من ألفاظ ومعاني وخيال وموسيقى وعاطفة وتجربة شعرية، وغير ذلك من العناصر التي يحكم من خلالها على الفنية بالجودة أو الرداءة.

أولاً :أثر الشخصية في الأسلوب:

هذه الشخصية وإن كانت خفية في الأسلوب ، فإنها بالغة الأهمية، فهي بمثابة الروح في النص الشعري وفطنة الشاعر تطبع قصائده بطابع شخصيته، وجمال النفس وصفاء الروح يطيفان غالباً في أسلوبه في أيام فرحه وترحه، فيضرب على أوتار الحب والعاطفة والوجدان، لينتقي لشعره أجمل الألحان، وقد يبدو الاضطراب النفسي لدى الشاعر في أيام الترح ظاهراً، فتتجلى صراحته، وتخلع شخصيته الشاعرة بعض سماتها العقلية أو العاطفية، فتتأثر نوازع النفس وغرائزها وانفعالاتها، لتندمج في مادة الشعر.

فالشاعر الانفعالي ينتقي لشعره أسلوبا خاصا زائدا الحساسية، والشاعر الانطوائي له أسلوب هادئ خافت النغم في كثير من الأحيان، والشاعر ذو النزعة المنبسطة يختار أسلوبا عالي النغم، قوي الألفاظ، فمن أي نوع شعر المعتمد ؟

إن أسلوب الشاعر هو من النوع الزائد الحساسية يلمسه القارئ وما فيه من انفعال، فيصف خوالج النفس وحبه للأنس، وشغفه للملك، فيصف أبخرة شبابه،وعطور غرامه، وقد حفل ديوانه بالكثير من المقطوعات الكثيرة ([1]).

---

[1]() انظر شعر الفرح في الدراسة الموضوعية.

أما في أيام ترحه ففرضت عليه العزلة فنرى أسلوباً بين الجهارة والخفوت، الجهارة بفك أسره، والخفوت بالتعازي لحاله، حتى أخيلته وإن علت فلن تذهب حدّ الاغتراب والإبهام، وموضوعاته الشعرية تتراوح بين الذاتية والموضوعية.

فالمعتمد مزيج من الطابع الانفعالي الذي له القدرة على مراجعة النفس، وطلب الجاه وحب النفس، وحب المغامرة لإثبات الذات، وهذا يظهر في الجانب الشبابي والاعتذار لأبيه ليسد ثغرات أفعاله، والطابع المنفعل، الذي يتمثل في الإحساس الدقيق بحاله واسترجاع الماضي، فأسلوبه أسلوب متحرك حساس يشف عن البديهة والتلقائية، وإذا مثلنا من شعره،فشواهد كثيرة تدل على أثر شخصيته.

من عَزَا المجدَ إلينا قد صدَق	لم يُلَمْ من قال، مهما قال حَـقْ
مجدُنا الشّمسُ سَنَاءً وسنــا	من يَرُم سَتْر سَنَاها لم يُطِـــقْ
أيّها النَّاعي إلينا مجــدَنا	هل يضيرُ المجدَ أن خطبٌ طَرقْ
لا تُرَع للدمع فـــي آماقنا	مزجَتْه بدمٍ أيدي الحُـــرَقْ
حَنِقَ الـــدَّهرُ علينا فسطَا	وكذا الدَّهرُعلى الحرِّ حَنــِقْ
وقديما كِلـــفَ الملكُ بنا	ورأى منَّا شُموشاً فَعشِـــقْ
قد مضى منا ملوكٌ شُهِرُوا	شُهرةَ الشَّمس تجلَّت في الأُفُقْ
نحن أبناءُ بني ماء السَّما	نحوَنا تطمحُ ألحاظُ الحـــدَقْ
وإذا ما اجتمـــع الدّين لنا	فحقيرٌ ما من الدّنيا افْـــترقْ ([1])

هذه القصيدة نطالع فيها أبرز سمات أسلوبه،فهو سلس الأسلوب، حلو الرونق، كثير التدفق، قصّ فيها الشاعر وجده وهواه تجاه المجد الذي يهواه، هذا المجد تذكره عندما أفنى ملكه، وقد أضاف إليها من رصيده الإرثي، وعبر عن خواطره الوجدانية تعبيراً ينم على أنه لم ينس مجد أبائه، موشحاً أسلوبه بالصور الحية، ونابضاً بنغم حلو مهيب متنوع، وربما كان هذا القصيد من أصفى وأجمل قصائده، وهو يحمل في تضاعيفه طوايا نفسه، ينم إجمالاً على

([1]) الديوان ١٠٩.

أن طابعه انبساطي أكثر منه انطوائي، فأخذ يتحدث عن نفسه وذكريات مجده، فأسلوب القصيدة يجمع بين التعلق بالماضي والميل إلى التحرر والانطلاق من قيده.

وإذا القينا نظرة فاحصة على جزئيات القصيد،أمكننا القول بأن صاحب هذا الأسلوب السلس الرقيق، يتسم باللطف والرقة، وهذا ينم عن حساسيته الزائدة،وأنه رجل بديهة وشعور أكثر منه رجل تفكير فيما يقول من بحور، وكأن هذه الأبيات جرت من خاطرته جرياً تلقائياً، دون أن تترسب أبياته في بؤرة الفكر.

وربما لا نعدو الحقيقة، إذا قلنا :إن موسيقى القصيد في علوّ نغمها آناً، وفي خفوتها آنا آخر، وتوسطه آناً ثالثاً، يحمل في طواياه، شاهداً من شواهد القلق النفسي، وكذلك البحر الذي اختاره يوحي بالأسى الباطني، والحزن المكتوم بداخله، كما أن تذبذب معاني القصيد بين الرفعة آناً وبين النزول آناً آخر قد يحمل إلى الحكم أن صاحب الأبيات يعاني حالة نفسية كئيبة، لا يمكن العلاج منها إلا برجوع مجده .

لذلك نرى أسلوبه يسوده المزاج الانفعالي، إذ تنتابه انفعالات : الحب والحزن والألم، وهذه الانفعالات عبّر عنها تعبيراً فنياً نابضاً بالحركة، وهي في مجملها انفعالية سامية في كثير من الأحيان، فهو إذا همه المجد،ينازعه الألم والحزن، وهو إذا مسته البأساء، أو برّجت به النكباء صبر عليها مرغماً.

ونخلص من هذا إلى أنّ للشخصية أثرها القوي الخفي في الأسلوب، وبين الاثنين تفاعل مكين، والقارئ المتعمق هو الذي يكشف سمات هذا الأسلوب، وهذا يؤكد لنا القول الشائع عن الأسلوب(الأسلوب هو الرجل)، إذا لم يكن مقلداً أو متقمصاً شخصية أخرى يحاكي أسلوبها.

ثانياً: المعجم الشعري :

أما عن اللغة فهي أداة الفن الشعري ووسيلة من وسائل إبرازه، إذ هي تلعب الدور الأساسي في نقل التجربة الشعرية، ولا يتحقق دور اللغة إلا إذا

امتلك الشاعر حاسة لغوية دقيقة تجعله يقف على الألفاظ الموحية التي تنقل إحساسه.

هذا العنصر من عناصر الصياغة، فالألفاظ وتراكيبها، وما تقوم به في القصيد دون حاجة إلى عوامل مساعدة، وهو عنصر على جانب من الأهمية، وجودتها وتآليفها كافية لإبداع القصيد، ثم يأتي دور المعاني وما تحمله من أفراح وأتراح، وما يقاسي من الوحدة وتفاقم الفقر، ولم يكن في يوم من الأيام يقهره الفقر، ويُؤثر فيه الحبس والقيد.

كذلك المعاني نجدها عامة شائعة في شعره، وهي معان نابعة من تجارب مرّ بها الشاعر، فكان في عرضها أسير هذه العاطفة المبهجة أو المحزنة، فيأتي بها وفق مقتضيات المنطق ومتطلبات العقل،ويلقى أفكاره كيفما تهيأت له،ويعرضها حسبما جاءت، لأنه مهتم أولا وأخيرا بمشاعره وعرض هذا الفيض النفسي الذي يموج في داخله، وهذا هو الهدف الذي يسعى لإبرازه .

فالشعر حقيقة ترجمة لذاته، أو هو حديث النفس للنفس بكل ما فيها من جوانب القوة والضعف والتماسك والهوان، ولهذا كان أبرز ما يميزه الصدق، سواء أكان صدق الشعور أم صدق التعبير، فالصدق الشعوري أو النفسي في عرض الأفكار يتمثل في تقديم ذاته في صدق وصراحة، ففي موضع الفرح نراه يقول:

أيا نفسُ لا تجزعي واصـــبري وإلا فإنّ الهوي مُتلِفُ
حبيبٌ جفاكِ وقلبٌ عصـــاكِ ولاحٍ لحاكِ ولا مُنصِفُ
شجونٌ مَنَعن الجفونَ الكَـرَى وعَوّضْنَها أدمعاً تَنْزَفُ[١]

هذه الأبيات نرى أنها معان مطروقة في شعر من سبقه، ولكن الجدة في إخراجها مرة ثانية في صورة جديدة تتلاءم مع موقف الغزل والهجر اللذين يمر بهما الشاعر، ومعانيه حية ناطقة، تكشف عن المعاني التي يعانيها، وتنبثق منها موسيقى مختلفة النغمات متحدة القرار.

---

[١]() الديوان :٢١

كما يبدو لنا أن الشاعر تميّز بالتعابير المباشرة الآسرة دون استعانة بتوشية ولا ترصيع، ويشهد بذلك كثير من مقطوعاته الشعرية التي تعتمد في الغالب على الألفاظ المؤنسة ذات النغمات الهادئة.

أما قوله في موضع الترح:

غَريبٌ بأرض المغربين أســـــيرُ	سيبكـــــي عليـــه منبرٌ وسريرُ
وتَندُبه البيضُ الصَّـــــوارمُ والقَنا	وينهـــــــلُّ دمـــعٌ بينهن غَزيرُ
سيبكيه في زاهيه والزَّاهـرِ النّـدى	وطُلاَّبُهُ،والعرفُ،والعرفُ ثمَّ نكيرُ
إذا قيل في أغمات قد مـات جـودُه	فمـــا يُرتَجَى للجود بعــدُ نُشورُ
مضَى زمنٌ والملكُ مُستأنِــسٌ بــه	وأصبـــحَ عَنه اليوم وهــو نَفُورُ
برأيٍ من الدَّهر المضلَّل فـــــاسدٍ	متى صلَحت للصالحين دُهـــــورُ
أذلَّ بني ماء السماء زمـــانُهـــم	وذُلُّ بنـــــي مــاء السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكــــــاءٌ عليهـــمُ	يفيضُ على الأكبـــاد منهُ بُحور
....	....................................(1)

فبداية الأبيات تميل إلى التقفية، وجمال أسلوب يقوم على تجربة واضحة، و ومدلولات الألفاظ المختارة تلاءم معاني الترح، ليس فيها من الصور الخيالية أو المجازية إلا القليل مثل: (وتَندُبه البيضُ الصَّـــــوارمُ والقَنا)، (الدَّهر المضلَّل فـــــاسدٍ)،....

والحقيقة التي يجب أن نقر بها هي أن المعتمد كان يعي دور اللفظ ووظيفته ودوره في البناء الشعري، وأن القصيد يمتاز بقوة الكلمة وشاعريتها وإيحائها، وغايات الشعر السامية التي تعبر عن محنته، فالألفاظ موحية ولها أثرها المزلزل في النفس، ولها رجع بعيد الغور في القلب، تضيف إلى الذهن والحس صورا متنوّعة، وتعبر عن ضياع كل شيء حتى الأمل في هذه الدنيا لم يكن يأمل به.

(1) الديوان ١٠٠، ٩٩.

كما نلمس الصدق التعبيري أو الفني المتمثل في استجابة الشاعر لما يلقي في روعه دون تزويق أو تنميق، يمتزج فيه الفكر بالوجدان، مع غلبة الجانب الوجداني الذاتي، فنجد انسياب العواطف واهتياج الخواطر، مما جعله يمتاح في عواطفه من قيمه التي تلح عليه باستمرار، فمعانيه تأثرت بالأحداث التي كانت تمر به، على نحو ما صنع الشاعر من فكرة الحديث عن استعطاف أبيه وهو في مقتبل العمر.

فمن يقرأ شعره يرى أنه شديد الانصهار في حريق الألم، تتسارع ظلال وجوده بالانحسار، كما تنحسر آخر ومضة نور من وجود النهار، فنستنتج عدة حقائق تضمنتها معانيه، منها فحولة الصياغة المتلبسة لشاعريته المتمكنة من القصيد الحزين في موسيقاه،البارعة في تجميع المعاني، ومنها تداعي الألفاظ الباكية الحارقة خدود الزمن بكل محرق، ومع ذلك نلمس عفة تتمشى في شخصيته، وروحاً أخلاقية تحول بينه وبين أن يتهتك في بكائه، أو يتهافت في مصيبته،ومن ثم فإنه يبدو مطبوعاً بطابع الكآبة التي لا تستسيغ ما يتقبله الواقع من أحاديث تخرج أحياناً عن مألوف حسّه،وتندّ عن متعارف ذوقه.

وإذا كان الشعر مرآة لنفس قائله، وانعكاساً لطبائعه وأهوائه ؛ فإن شعر المعتمد يعد نموذجا فريداً لصفاء العبارة، وإشراق الديباجة، ووضوح التراكيب، فأسلوبه لا يشوبه الغموض، واضحاً لا يفسده الالتواء أو التعقيد، وقد توسل في صياغته بوسائل فنية، نجملها فيما يأتي :

(١) براعته في حشد كثير من الألفاظ ذات الدلالة والإيحاءات الشعورية التي تصور حالة سروره، وما يكابده من حبس واسترجاع الماضي، والوجد والضنى، والزفرات والأنات، والسجن والإهمال، وكلها معان تعبر عن البعد والهجر، مثل قصيدته في الاستعطاف والتسلية في مصابه، وهزيمته في (مالقة)، فاعتذر عن تقصيره وتخاذله لأبيه في فتحها :

سكِّن فؤادَك،لا تذهــــب بكَ الفِكَرُ ماذا يُعيد عــليك البثُّ والحـــــذَرُ
وازجُر جُفُونَك، لا ترض

البكاءَ لها واصبر، فقد كنت عند الخطب تصْطَبرُ
وإن يكن قدرٌ قد عـــاق عن وطَرٍ فلا مــــردَّ لمــــا يأتي بـــــه القَدَرُ
....
... . (1)

وهي تدل على براعته في النظم وحشد الأفكار ليكون له السبق، وقد خبر الحرب، وخاض غمار المعارك وإن لم يظفر بالنصر، محاولاً الدفاع عن تقصيره وتهاونه وانشغاله عن الفتح باللهو، وقد قبل منه المعتضد اعتذاره، فعفا عنه وأرجأ ظفره إلى معارك أخرى.

(٢) مهارته في استخدام الألفاظ، وسلكها في نظمها،ووضعها في إطارها المناسب الملائم لها،بحيث تنهض بدورها اللغوي، فالكلمة عنده تكتسب قيمتها من السياق الذي تقع فيه وهذه لها دلالة وإيحاءات بلاغية، كما أكثر من أساليب الإنشاء، خاصة الاستفهام والتمني،....

مولاي أشكو إليـــك داءً أصبح قلبـــــي به قريحـا
إن لم يُرِحْهُ رضاك عني فلست أدري لـــــه مُريحـا
سُخطك قد زادني سقاماً فابعث إلى الرّضا مُسيحـا
واغفِر ذنوبي ولا تضيِّق عن حمَلِها صدركَ الفسيحا
لو صوَّر الله للمعالـــي جسماً لأصبحت فيه رُوحا (2)

(٣) تكرار بعض الألفاظ لها دلالة نفسية عند الشاعر، وهذا يرجع إلى اهتياج مشاعره واضطراب خواطره، في الأحداث التي تمر به في الفرح والترح، فتكرار اللفظة ضربٌ من الراحة أو ولونٌ من التلذذ والمتعة، فيستشعر في تكرارها سعادته وسروره، أو حزنه وقيوده، وقد يكون تكرار اللفظة لغاية جمالية .

---

(1) الديوان ٣٦
(2) الديوان ٣٣.

يا ليـــتَ مدَّةَ بُعدِك   رشيقةٌ مثـــلُ قَدِّكْ
كُمدّة الورِدِ،ورد الـــرّبيع،ولا ورِد خدّكْ
فَعمرُ ذا عُمْرُ صَبري   وعمرُ ذا عمرُ صَدِّكْ
رضيتُ منكَ وإن لم   تُنْـجـز بلذَّة وَعدكْ (١)

ومثل قوله في الاعتذار:

أيَا مَلِكاً يَجِلُّ عن الضَّريب   ومـــن يلْتذُّ غُفران الذُّنوب
ومن في كفِّه بُؤْسَى ونُعمى   تَصرَّفُ في العدوِ وفي الحبيب
تسخُّطك الممضُ أعلَّ نفسي   ومالي غيرَ عفوك مـن طَبيبِ
ولستُ بمنكر ذنبي،ولكـــــنّني قد جئتُ في حال المُريب
فإن عاقبتني فـــجزاءُ مثلي   وإن تَصفح فليسَ من الغريب
بقيتَ مؤَيداً،مـــا لاح برقٌ   وما غنَّي الحمامُ على قَضيب(٢)

هذه السلاسة في أسلوبه دارت على رحى السعادة والشقاء، وتتمثل عناصر الأسلوب فيما يأتي:

(١) الصدق في الإحساس الذي ينتشر في أسلوب الشاعر، وشعوره المتدفق الذي يكسب أسلوبه القدرة على التأثير،ويجذب أسماع المتلقين.

(٢) هذه الرقة والسلاسة والوضوح والإشراق والصفاء، وهي صورة لإشراقه النفسي، وصفائه الروحي، وحسه المتقد، وطبيعته الشاعرة، وخواطره المضطربة بنار الفرح والترح، وحرارة العاطفة

(٣) ينتشر في شعر الشاعر موسيقى هادئة رائعة تصدر عن أوزانه وعباراته الموحية، وجوهه النفسي،ومعانيه التي تنساب في وضوح وإشراق، هذه الموسيقى الشائعة هي نتيجة طبيعية للتطابق بين إشراق النفس وإشراق الأسلوب اللذين يغلبان على أداء شعره.

---

(١) الديوان ١٠.
(٢) الديوان ٣٣، ٣٢.

وقد كان من أكثر الشعراء ارتباطاً بالنهج القديم في الصياغة، فهو مشدود بأواصر قوية جعلته ينظم في محرابه على الرغم من أسلوبه المتحرر من قيود القصيدة الجاهلية، وصوفيته الساذجة وطاقته الشعرية النابغة وفنه الشعري الذي يعتز به بين شعراء الأندلس الموهوبون.

ثالثا: التناص في شعر المعتمد:

إن الثقافة الفنية التي يتزود بها الشاعر، عمادها الأول رواية الشعر وحفظه المبنية على الموهبة، فحفظ الشعر يترك آثراً في ذاكرة الإنسان، ذلك أنه يردد أكثره ويتحرى مواطن جماله، ويتذوق دقائق إبداعه فتتوق نفسه إلى مجاراته.

أما التأثر غير الواعي. فهو أبعد مدى وأوسع ميداناً، إذ ينظم الشاعر ما يظنه إبداعاً ذاتياً، ثم يتبين له أو لغيره، انه صدى لما كان في نفسه من رصيد ثقافي، فكان يجيد حفظ هذا النوع من القصائد التي تغذي ذاكرته من موروث الشعر الذي يصور بذور شاعريته، ولكن ذلك لا ينفي أن تكون العاطفة العارمة في صدره هي إحدى السمات البارزة في طوابع أدبه، نجدها في جلساته مع أترابه وقد ملأت حيزاً من طفولته الحافظة لأكثر شعراء العرب تطلعاً.

فالأندلس مهما كانت مستقلة عن المشرق في سياستها ونظمهما الحكمية؛فإنها بنت المشرق في ثقافتها الشعرية، لأسباب كثيرة منها:

(١)أن الأندلس كانت بحاجة إلى المشرق لأنها أرقى حضارة وأحفل بأسباب التقدم الثقافي، فهم عرب ذوي ثقافة، لأنهم يحملون للمشرق كل تقدير وإكبار.

(٢)أن وسيلة التعبير عند المشارقة والأندلسيين واحدة بكل ما فيها من مظاهر الانبهار والإعجاب، ناهيك عن الموضوع الشعري الواحد،وأنه موروثهم.

(٣)أن العرب من أشد الأمم عصبية وحنيناً إلى وطنهم، فمالوا في أخيلتهم ولم يهجروا عاداتهم، فكانوا يتغنون بتراثهم ويتخذونهم نموذجاً لهم في الصناعة الشعرية.

وقد لا نغالي إذا قلنا : إن المعتمد سار على خطا شعراء متقدمين، في قرون سلفت، ولعل هذا يميل بنا إلى الاعتقاد، بأن جسده يحيا في أحداث عصره، وفكره يسبح في بحور شرقه، فيجاريهم في الأسلوب والعبارة ؛ ويكشف عن كنوز الشعر في وقت الصدارة، الأمر الذي جعله يتمرس بأسلوب من سبقه من الشعراء، ويتأثر بهم في فنية الشعر، ومن آليات الاستدعاء:

١ـ الاستدعاء بالصفة:

تتجلى في أولى شعره مدح أبيه، ينقله لنا في فخر واعتزاز وصدق انفعال، حتى يبدو ممتلئ النفس بالقوة والعنفوان،غير أنه وقف عند الإطار العام للمدح من كرم وسخاء، واعتذار ورجاء،... ولم ينفذ إلى ظواهــر تفصيلية أو الجوهر العام الذي انبعثت منه أصالة أبيه، لذا فإنه اعتنق مذهب المدح وبقي بعيداً عن الأسباب التي أهلت أبوه لذلك بعيداً عن القدح، فلوّن شعره بما كان عليه أصحاب القصائد من مدح وفخر ووصف وغزل ورثاء وشكوى وحنين.

يا أيُّها الملك الــــذي	**كفاه بخَّلتا السحـــــاب**
أنعمت بالبيض الكعا	**ب،عليَّ والخيْلِ العرابْ**
وغدوت تُخشى للعقا	**ب،كمــــا تُرجَّى للثوابْ (١)**

فقد رفّد هذا المعنى من قول أبي فراس :

---

(١) الديوان ٣١.

يا أيها الملك الـــــذي أضحى لذيل المجد ساحب
نُتِجَ الــربيع مَحَاسِنا ألقحْنه غــــر السّحائب(١)

ونستطيع أن تتبين الخط المتميز الذي نهجه الشاعر،والذي منه يظهر تأثر نمطه بمن سبقه من الموروث المشرقي،في معان وتعابير ممزوجة بومضات خاطفة،حتى بات في نزعته المشرقية أسير ذلك الذي انغرس في ذاكرته انغراس الندبة الموروثة الندية في جسد الوليد،أو كالوشم المحفور على أديم يكسو الجسم النامي في زمن الشباب عبر العصور.

هذه الأبيات تفوح منها نكهة الهيكلية المدحية المعطرة بأريج أبي فراس، ورقة المعتمد بن عباد وتأثره بالتراث، فتتأرجح برائحتها أريج من الشرق والغرب، لنعلم أن الشاعر أراد الاهتمام بجانب الجود الذي قرنه المعتمد بالسحاب، وقرنه أبو فراس بالمجد الذي عبر عنه بغر السحاب .

ولا نغالي إذا قلنا ـ من خلال ما أوردناه ـ أن المعتمد سار على خطى شعراء المشرق، ولعل هذا يميل بنا إلى الاعتقاد بأن جسده يحيا في العصر الذي يعيش فيه، وفكره يسبح في بحور العصور السحيقة، فهو يحاكي في شعره شعراء الشرق،الأمر الذي دفعه إلى التمرس بأقوال سابقيه، مثل عنترة وأبي فراس.

وليس معنى هذا أن الشعر الأندلسي مضى يبني نفسه على قوالب مستعارة من حضارة الشرق،وإنما بدا عليه طابع الاحتذاء والتقليد في الشكل فقط، أما المضمون فلكل له وجهته، ولم يكن الشاعر مدفوعاً إلى ذلك بباعث المنافسة لحضارة العرب في الشرق، بمقدار ما كان مدفوعاً ـ كما يبدو ـ بباعث نفسي هو الرغبة في أن يجعل من الوطن الجديد امتداداً للوطن الأم،حتى يظل الشاعر يشعر أنه في بُعدهم غير بعيدين،وفي اغترابه غير مغتربين.

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د/خليل الدويهي ٢٩، الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م

من عَزَا المجدَ إلينا قد صدَق ... لم يُلَمْ من قال، مهما قال حَقْ
مجدُنا الشّمسُ سَناءً وسنـا ... من يَرُم سَتْر سَنَاها لم يُطِـقْ
أيّها النَّاعي إلينا مجـدَنا ... هل يضيرُ المجدَ أن خطبٌ طَرقْ
لا تُرَع للدمع فـي آماقنا ... مزجَتْه بدمٍ أيدي الحُـرَقْ
حَنِقَ الـدَّهرُ علينا فسطَا ... وكذا الدَّهرُ على الحرّ حَنِـقْ
وقديما كِلـفَ الملكُ بنا ... ورأى منَّ شُموشاً فَعشِـقْ
قد مضى منا ملوكٌ شُهِرُوا ... شُهرةَ الشَّمس تجلَّت في الأفُـقْ
نحن أبناءُ بني ماء السَّما ... نحوَنا تطمحُ ألحاظُ الحـدَقْ
وإذا ما اجتمـع الدّين لنا ... فحقيرٌ ما من الدّنيا افْـترقْ ([1])

إذا التقى المعتمد مع موارد المجد في أبيات أبي فراس

بنينا من العلياء مجدا مشيداً ... وما شائدٌ مجداً كمن هو هادمه
سَلِ المجد عنا يَعلمُ المجدُ أننا ... بنا أُطِدت أركـانه ودعائمه([2])

ومن خلال هذه الأبيات لا نشك أن المعتمد قد تأثر بها،أو سمع بها، فالشاعر له بثقافته الفنية،ولا بد أن يظهر في ديوانه آثارٌ من نتاج من تقدّمه، ليستمد منهم بعض معاني الشعر وأساليب القول، ثم يضيف إليها من تجاربه وإبداعه ما يصوغه في قالب ذاتي، يمثل شخصيته الفنية، فقد كان المعتمد يتوافق معه في المحنة، لأنهما ذاقا آلام الحبس والعزل مكرهين، فلا غرو أن يتتبع إنتاجه،ويقتبس من قفزاته الفنية ما يزين به شعره، فصور مشهد المجد ونقل معناه صريحاً في بناء الملك.

وهكذا نرى نفس المعتمد تتوافق مع نفس أبي فراس،فالمعاني تكاد تتفق، والقريحة تنتفض، والعصف الوجداني عندهما واحد، والسعي وراء المجد لديهما قد حسم، غير أنّ أبا فراس لم تتحقق أمنيته للملك، وتحققت أمنية المعتمد ولكن سُلب منه المجد.

([1]) الديوان ١٠٩.
([2]) ديوان أبي فراس الحمداني ٣٠٨.

كما تسري تلك الروح في معاني أسلوبهما السائر، حيث أن الألفاظ مستمدة من واقع البيداء المغرقة في عراقة الأساليب البدوية، فنقل صورة المجد وأسندها لنفسه، بيد أن المعتمد لا يكتفي بما أورد من معاني فيزيد عليها من قريحته الشعرية ما يفصل القول في تفاصيل المجد لينسبه إلى منبعه الأصلي.

٢- الاستدعاء بالألقاب :

وقد يقوم الشاعر باستدعاء الألقاب كما قال في البيت السابق فنسب المعتمد نفسه إلى (ماء السما) وهو

النعمان بن المنذر كما قال:

نحن أبناءُ بني ماء السَّما — نحوَنا تطمحُ ألحاظُ الحــــــدَقْ

وقد يقوم الشاعر باستدعاء بعض قبائل العرب المشهورة ليدلل على سطوته وسعة نفوذ أبيه المعتضد فيقول

مولايَ يا ذا الأيـــــادي — كواصفات الغوادي
أنا عُبيد مُعـــــــــدٌّ — لحسم داء الأعادي
واعتادت النفس منــــي — تصيّـــــدَ الآساد
بحق لخــــمٍ وطــــيٍّ — وكنــــــدةٍ ومُراد
ملكتُ من أرض حمص — إلى قـــرى سندباد
.... — ....(١)

إنه يحلف بحق قبائل العرب المشهورة أن سطوة ملكه قد تجاوزت بلاد الأندلس، فاستدعى هذه القبائل ومكانتها ليؤكد على اتساع ملكه.

٣- استدعاء بعض الشخصيات التي تحمل دلالات معنوية :

وقد نرى استدعاء شخصيات كثيرة لتحمل معاني ودلالات شهيرة، ففي هذه القصيدة مثلاً:

---

(١) الديوان ٣٥.

الملك في طيِّ الـــدفاترْ فتَخَلَّ عن قودِ العساكِـــرْ
طُفْ بالسَّرير مسلّمـــاً وارجع لتوديـــع المنابِرُ
وازحف إلى جيش المعا رف تَقهـــرِ الحبرَ المُغَامِر
واطعن بأطرافِ الـــيرا ع ـ نُصِرت ـ في ثَغْر المحابرْ
واضرب بسكّين الـــدّوا ة، مكـــان ماضي الحدِّ باترْ
أوَ لستَ رَسطَــالِيس إن ذُكِرَ الفـــلاسفةُ الأكـــابْر
وكذاك إن ذُكر الخليـــلُ، فـــأنت نحويٌّ وشاعـــرْ
وأبو حنيفةَ ساقـــطٌ في الرأي حين تكون حَاظــرْ
من هرمُسٌ،مـــن سيبويـــه،من فُورَك ؟ إن تُنـــاظِرْ ([1])

ويظهر المعتمد شديد الارتياح إلى أدباء الشرق يقلب صفحات كتبهم، ويتتبع علماءهم، ويختار من أدبهم ما يتوافق مع الاستشهاد لمواضع شعره،وهي في زحمة الموضوعات، منبع من منابع الاستضاءة لأعمالهم وفضلهم، يسكب منها في نفسه وخياله ما تنسكب فيه النفس المتطلعة إلى العلياء، ليشهد بمجدهم في باحة الشعر الغناء، يتحدث عنهم في حله وترحاله، ويجعلهم في ديوانه أزاهير في بستانه، ليتعانق فيه المشرق مع المغرب، ولئن توقف شعراء الأندلس عن التناص لكانوا كنبت شيطاني لا أساس لهم، فأشار إلى الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، أما الهرامسة الثلاثة هم :

أ- هرمس الأول وكان قبل الطوفان،وهرمس :لقب،كما يقال قيصر وكسرى،وتسمية الفرس في سيرها (اللهجد) وتفسيره ذو عدل.

ب - وهرمس الثاني: من أهل بابل وكان بارعاً في الطب والفلسفة عارفاً بطبائع الأعداء وكان تلميذه فيثاغورس.

جـ - وهرمس الثالث وقد سكن مصر وهو صاحب كتاب الحيوان ذوات السموم،وكان طبيباً فيلسوفاً وله كلام حسن في صناعة الكيمياء،وابن فُورَك : وهو محمد بن الحسين بن فورك واعظ عالم بالأصول والكلام

---

[1]() الديوان ٤٧، ٤٦.

من فقهاء الشافعية،حدث بنيسابور وبني فيها مدرسة وله تآليف كثيرة.

٤- استدعاء الأماكن :

وقد يكون الاستدعاء بالأماكن:مثل قوله وهو يشبه صورة أهل الصليب بكفار مكة ووضعهم في القليب بعد قتلهم في معركة بدر:

غزوٌ عليك مباركٌ ... في طيِّه الفتـــح القريبْ
لله سيفُك إنـــــه ... سخطٌ على دين الصَّليب
لابدّ من يوم يكو ... ن له أخٌ يـــــوم القليب[١]

وهذا تفاؤل من المعتمد بالنصر في معركة (الزلاقة).

رابعاً : **الصورة الشعرية :**

من شان التجارب الشعرية التي يطغى فيها الجانب الوجداني أن تكثر فيها الصور الشعرية، ويبرز فيها دور الخيال بروزاً واضحاً، لكننا نلحظ في شعر المعتمد أمراً مغايراً فالصورة الشعرية قليلة، وهي على قلتها بسيطة غير مركبة، قريبة لا إغراب فيها ولا إغراق، لأن قريحته لم تكن تعتمد على الصور الخيالية قدر اعتمادها على العبارة الواضحة.

ومن هنا جاء شعر المعتمد عامراً بالدلالات الشعورية والإيحاءات اللفظية والانسياب العاطفي، أكثر من مجيئه عامراً بالصور الشعرية، ولكن نظرته الشعرية وعواطفه الصادقة كانت تهديه في كثير من الأحيان إلى صور تحمل كثيراً من الحس المرهف أو البصيرة النافذة، وكأنها ومضات تنقدح في خاطر الشاعر، ثم تشرق في بيت أو بيتين أو بضعة أبيات، ثم يعود إلى مستواه المألوف.وتنقسم الصورة عند المعتمد إلى عدة أقسام تتصل مرة بالصورة المباشرة،وثانية بالرمزية، وثالثة بالنفسية، وما إلى ذلك.

---

[١]() الديوان ٥٣.

١- الصورة المباشرة :

هي الصورة التي يعكس فيها الشاعر لوحات من واقع الحياة دون الاستطراد في حركة الصور كما يعبر عنها بالتصوير الحقيقي،بعيدة عن ضروب البيان مثل قوله.

مررْتُ بكَ◌رمة جَذَبت ردائي فقلت لها : عزمت على أذَائي
فقالت: لم مررتَ ولم تُسلّ◌ِّ◌م وقد رُويت عظامُك من دمائي؟!([1])

فهو يعبر أنه مرَّ بكرمة كانت قد شغفها حباً، فتعمدت وقوفه وهو يمر ولم يسلم، ونسي الشاعر ما دار بينهما من حب، هذا التصوير على جماله يسير في إطار الصورة الصريحة،فتعطي تفصيل محدود، وإيحاء مباشراً بما يعتمل به نفس الشاعر .

وقوله يمدح أباه :

الشمسُ تخجلُ من جمالك فتغيبُ مُسرعةً لِذلِكْ
والغيثُ يخجــلُ ان يُصو بَ،لما يراه من نَوالكْ
والبدرُ يطلـــــع ناقصاً حتى يُتمــمَ من كمالكْ([2])

كما نلاحظ أن الصورتين،عرض لهما الشاعر كاللمحة العابرة، فلا يكون لهما أصداء من حيث هي صورة ككل، وصورة من هذا النوع نضني أنفسنا كثيراً إذا التمسنا خيطاً نفيساً واحدة ينتظم في الأبيات ن لأنها تصور صور ومشاهد.

٢- الصورة الرمزية :

---

[1]() الديوان ٢.
[2]() الديوان ٤١.

نقصد بالصورة الرمزية الصورة التي ترمز لشيء ارتبط في أذهان الناس، كارتباط الحمام بالسلام، والأسد بالقوة أو التحدّي،أو الرموز المكانية التي ترتبط في أذهان بقدسيتها كأم القرى، وطيْبة وغيرهما من معاني الأمكنة العالقة في أذهان الناس،والليل، والمساء،والصباح، والفجر، فقد نعبت غربان بجوار المكان الذي كان أسيرا فيه، فقال :

غربانَ أغماتَ لا تعدَمْن طيبـــةً من الليالي، وأفناناً من الشَّجر
تُظِـلُّ زُغبَ فراخٍ تستكنُّ بهـــا من الحَرُور،وتكفيها أذَى المطرِ
كما نعبْتُنَّ لي بالفَأل يُعجُبنـــــي مخبــِّراتٍ به عن أطيب الخبر
أنّ النّجومَ التي غابت قد اقتربـت منَّا مطالعهـــا تَسري إلى القمر
علىّ إن صدَّق الرحمنُ ما زَعَمت ألاّ يُروَّعن من قَوسي ولا وترِي
والله،والله،لا نفَّـــرتُ واقعَها ولا تطيّرت للغـــــربان بالعور
ويا عقاربَها لا تعـــــدمي أبدا شجًّا وعقراً ولا نوعاً من الضرر
كما ملأتُن قلبي مذ حَللـَتُ بها مخافةً أسلمت عيني إلى السَّهرِ
ماذا رمتك به الأيام يا كبـــدي من نَبلهنَّ، ولا رامٍ سِوىَ القدرِ
أسْرٌ وعُسرٌ، ولا يُسرٌ أؤمِّلُـهُ استغفرُ اللهَ، كم لله مـــن نظرِ[1]

هذه الأبيات على ما فيها من مرارة ووله شديد وجزع من نعيب الغراب الذي ذكّرنا باليأس والتشاؤم، ومدى حركته النفسية الجياشة،التي ساعدت على استنفار كوامن النفس، وقد استخدم الاستعارات، وجسّد المجردات، كما استخدم الصور الرمزية للغراب ممثلة في(كما نعبْتُنَّ لي بالفأل، مخبـــِّراتٍ به عن أطيب الخبر، ولا تطيّرت للغـــــربان بالعور،...)وهي صور يعبر فيها عن الصورة النفسية.

كما نلمس في الصورة بطء الحركة وتصوير مرارة انفراج الأزمة التي يعيشها الشاعر، ونفاذ الصبر الذي يوشك أن يصل إليه بعد طول انتظار فكاد أن ينفجر، ورغبته في مواصلة الصبر، وأنه قدر محتوم، كما أكدت الصورة

---

[1]() الديوان ١٠٠.

رضاءه عن حالته النفسية، حتى جعل النجم يقترب من نور القمر في الضياء ليؤكد أن الانفراج آت لا محالة.

كما ترمز العقارب إلى شي يكرهه الإنسان وهو اللدغ وهو ما يسبب به الضرر، فوصف لنا وقع العقارب في روعنا، (شجًّا وعقراً ولا نوعاً من الضرر) والبيت التالي لهذا الشطر كان وسيلة إلى إتمام المعنى وسوء العاقبة للشاعر ورثاء حالته لينتهي أمره بالهلاك.

فالشاعر أراد أن يدلل على حالته النفسية التي لا تليق بملك مثله سيق به عنوة إلى السجن، وينأى بنفسه عن تحقيق الراحة النفسية، وقد ساعده الغراب والعقرب على إبراز هذه الصورة للعيان،فلا يتسنى له أن يغترف من السعادة أو يعيشها وهو مقيد مسجون.

كما تظفر الصورة بالحركة، وكان الناظر يشاهد حركة الغربان والعقارب،ولكن الصوت يفتقد فيهما،فضًلا عن الجو النفسي الذي يسود الصورة، فالليالي تعبير ينم عن الجو المكفهر الذي يعيش فيه الشاعر، وكذلك الغربة والضعف والقسوة، في غياب النجوم التي تعبر عن الظلمة وسوء حال الشاعر.

كما نلمس التطابق التام بين الصورة والتجربة التي يمر بها الشاعر لإظهار الحالة النفسية التي خامرت نفسه، وتفاعلت في جوانبها المختلفة التي صورها الشاعر من خلال الرمز للغراب والنجوم والعقارب، فضخامة الهموم والأحزان التي يعانيها الشاعر حولت سجنه إلى التأمل في كل ما يمر عليه، فحس بثقل الحبس على نفسه، وكيف انتشر وامتد في كل ما يحيط حوله.

٣- الصورة النفسية :

لا تختلف الصورة النفسية أو الإيحائية عن غيرها من الصور في أدوات التصوير التي تعبر عنها؛ فهي قد تكون صورة مباشرة أو رمزية،....ولكنها تختلف في تعبيرها عن المشاعر والأحاسيس التي تنطوي عليها نفس الشاعر وتجسد ألامه وأحزانه سواء أكان في أيام الفرح أو الترح.

إني رأيتُك في المنام ضَجيعَتي وكأنَّ ساعدك الوثير وسَـــــادِي
وكأنما عانقتني،وشكوت مـا أشكُوهُ من وجدي وطولِ سُهادي
وكأنّني قبَّلت ثَغرك والطُّلــي والوجْنَتينَ، ونلـــت منكِ مُرادي
وهواك، لولا أن طيفَك زائــرٌ في الغِبّ لي، ما ذقتُ طــعم رقاد([1])

و اتخذ الشاعر الصورة أداة لتصوير واقعه النفسي، وما بداخله من عوالم جديدة من خلال اكتشاف العلاقات الكامنة بين أحشائه وغرامه بمن يحب، والتأليف بين المتباعدات والمتناقضات، ولا يحدث ذلك إلا بفعل ملكة الخيال،وما يحدث للشاعر من رؤية للوجود وطرح الأشياء في صورة جديدة.

إن أمنية الشاعر أن يجتمع الشمل بينه وبين محبوبته،فإذا تحققت له هذه الأمنية فلا يشغله بعد ذلك على أي صورة تكون حياته، لأنها ستعوضه عن كل ذلك، حين يلتئم شملهما في الحياة،هذه الصورة هي تعبير عن حالته النفسية،لم يصنعها خيال الشاعر إلا ليتحدث عن مشاعره المشحونة بألوان من المشاعر.

وقد تأثرت الصورة في شعر الترح بسياق التجربة التي يخوضها الشاعر ورغبته الملحة في خلع الثوب المثالي على صوره، حتى صارت صورة مثالية، الأمر الذي دفع الشاعر إلى تحسين صوره وعرضها في أجمل ثوب لإرضاء ملامح مثاليته المطلقة في صورة الذات، فقد يندب ابنيه فيقول:

يا غيمُ،عَيني أقوى منك تهتانــا أبكي لحزني، وما حُمِّلتَ أحزانَا
ونارُ برقِك تخبُو إثْرَ وقْدَتِهـــا ونــــارُ قلبِيَ تَبقى الدَّهرَ بُركانَا
نار وماءٌ صميمُ القلبِ أصلُهمــا متى حوى القلب نيراناً وطوفانا
ضدَّان، ألَّف صرفَ الدَّهر ألوانا لقـــــد تلوَّن فيّ الدَّهر ألوانا
بكيتُ فَتْحاً، فإذْ ما رُمتَ سلوتَه ثَوَى يزيدُ،فزادَ القلب نيرانـــــا
يا فْلذَتي كبدي يأبى تَقطّعهـــا من وَجْدها بكما ما عشتُ، سُلوانا

([1]) الديوان ٩.

لقد هوى بكما نجمان مَا رَمَيَـا إلا مـــــن العُلوْ بالألحاظِ كيوانا
مخفَّفٌ عن فؤادي أن تُكلكمـا مُثّقل لـــــي يوم الحشر ميزانا (1)

فقد جرّد من الغيم مخاطباً يناجيه، ويسأله ويستعين به على أحزانه، ويتمنى أن يكون تعبيراً ودليلاً على حزنه، ويطلب منه أن يتماسك ليوفي حق ابنيْه من البكاء، فالنص يصور حالة نفسية يمر بها الشاعر، فنقل من خلالها صورة الحزن فجعل لها أصولا تمتد نارا من قلبه ً، فتشتعل حتى تصبح بركاناً، لذلك جعل النار صفة للحزن ووسيلة لإيضاح المعنى ونقل الأحاسيس،إنه يريد نقل الحزن والألم الذي أصابه وقد غلب على نفسه وتمكن من صدره، إنه كان يحيا بنورهما فلما قتلا أوقد في قلبه ناراً لا تنطفئ بل كانت تزيد مثل البركان، وهذا تصوير للإحساس الداخلي للصورة، مَلَك عليه نفسه، وهو إحساس بالحزن جسده الشاعر في صورة البركان المتمثل في النار، والطوفان المتمثل في الماء، وكأنه يريد أن يقول لنا :إنّ الطوفان رغم قوته لا يستطيع إطفاء النار المتمثلة بالبركان.

وملكة الشاعر تستمد قدرتها من سعة الشعور، فالشعور الواسع هو الذي يستوعب كل ما في قلبه من حزن على ابنيه، لذلك نرى المسافة عظيمة بين شاعر يصف لك ما رآه كما تراه المرآة، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأحاله في روعك وجعله جزءاً من حياته.

لذلك نرى الشاعر يلون الأشكال الخارجية من ماء ونار بلون نفسه الحزينة مما يجعلنا نقول : إن المعتمد كان بارعاً في صنع الصور الحزينة وهي براعة نرى آثارها في كل مكان من ديوانه يتحدث فيه عن محنته، وقد بين ذلك التضاد بين الكلمتين (الماء والنار) هذا التضاد يحمل رؤية الشاعر المضطربة داخل الصورة، ويخلق حركة بين النقيضين تثري الصورة وتجعل بين طرفيها تأثيراً وتأثرا، كما أنه يعكس النظرة التشاؤمية التي ينظر بها إلى الحياة، وليوضح التناقض الموجود في واقعه الاجتماعي والنفسي، حيث يعني

(1) الديوان ٧٠، ٦٩.

التضاد الحيرة والتردد، ورؤيته العاجزة المتشائمة، أو رؤيته الحالمة في التغير إلى عالم أفضل.

فالشاعر قضى معظم حياته ملكاً وفي نهاية هذه الرحلة يجد الأمور متناقضة،بل يرى بالتحديد على عكس ما هو يرسم له، ليعكس الآلام التي يعانيها من واقعه، فليس التضاد هنا حلية لفظية لبيان براعة الشاعر في اللعب بالألفاظ، ولكن مرارة الواقع قلبت الأمور في رؤية الشاعر وجعلته ينتقل من النقيض إلى النقيض وهنا حقق التضاد وظيفته في كشف موقف الشاعر من الملك وعزته والسجن وكربته.

ثم يأتي وصف الحال في اللوحة الشعرية التي تدل على تلون انفعالات الشاعر ليلائم بين واقعه النفسي، فلو أخذنا مثلا صورة الدهر (الدَّهرَ بُركانَا، الدَّهر ألوانا) وكذلك صورة القلب (القلب نيراناً وطوفانا، فزادَ القلب نيرانـــــــا) لرأينا تلك الإسقاطات النفسية التي يسقطها الشاعر تبعاً للموصوف الذي يوصف بالحزن والكآبة، وليبين لنا مدى اتساع الحزن في قلبه الذي لا يرحم حين يغزو القلب.

هذا النوع من المشاهد النفسية التي يشكلها الشاعر ويلونها بمشاعره كثيرة في شعره، لم يصنعها خيال الشاعر إلا ليتحدث عن مشاعره، وهي صورة نفسية مشحونة،حين يخاطب الغيم، وكأن هاجس الغربة والقيد أرادا أن يعبرا عن حقيقة العذاب الذي يعانيه،فيفضي إلى حقيقة الفراق، ليحل الصراع النفسي إلى خيبة أمل وشعور بالضياع.

خامساً: العاطفة:

العاطفة ثمرة الشعور، ومقياسها الصدق، ومرادها التأثير، لذلك يمكن أن نقول :إن العاطفة مثل الماء والحياة للقصيدة، وهي التي تهز السامع، ويتأثر بها القلب، وبقدر ما تكون عميقة يكون أثرها بليغاً، فالشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شئونه، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه وشعوره،يصدر الشعر عن نفس منفعلة صادقة الشعور، ويمكن أن نقسم العاطفة إلى الآتي :

(١)عواطف شخصية وهي العواطف التي تحملنا وراء صالح خاص كالاعتذار،لأنها تحيا في دائرة ضيقة هي دائرة النفع الذي ينطق بالأثرة وحب الذات، فينصرف كثيراً إلى الفضائل بمناسبة ما اقترف من الذنب تجاه أبيه الملك، مثل قوله:

أيَا مَلِكاً يَجِلُّ عن الضَّريب ومـــــن يلْتذُّ غُفران الذُّنوب
ومن في كفِّه بُؤْسَى ونُعمى تَصرَّفُ في العدوِ وفي الحبيب
تسخُّطك الممضُ أعلَّ نفسي ومالي غيرَ عفوك مــن طَبيبِ
ولستُ بمنكر ذنبي،ولكـــــــنّني قد جئتُ في حال المُريب
فإن عاقبتني فـــجزاءُ مثلي وإن تَصفح فليسَ من الغريب
بقيتَ موَيداً،مـــا لاح برقٌ وما غنَّي الحمامُ على قَضيب([١])

غير أن هذا الشعر الشخصي لم يخل من العاطفة، وقد قاله الشاعر بوازع أحوال استلزمته بحكم العوامل السياسية التي حملته على ذلك الاعتذار.

والذي نريد أن نستعين به في نقد عاطفة الشاعر أمور منها : صدق العاطفة وقوتها،....فهذا الاستعطاف الذي نلمسه من الشاعر يبعث في النفس الشعور بالذنب، فهناك داع أصيل طبعي أهاج انفعالات أصيلة تجعل هذه الأبيات مؤثرة وباعثاً في نفوس القراء، وروعة هذا النص تكمن فيما قد يوحي به من معاني الإحساس بالذنب، وحيرة وتلهف على قبول الاعتذار، وسيقرأ الناس اعتذاراته أكثر ما يقرؤون غزله.

أما بالنسبة لقوتها،فإنها أعطتنا عينا جديدة نرى بها اعتذارات الشاعر لأبيه، وتولد في نفوسنا شعور العلاقة الحمية بين الأب وابنه،وإعداده إعداداً قوياً للحكم، وما دام المعتمد يبغي شيئاً وراء اعتذاراته لنسأل أنفسنا عن سبب ذلك كله فتجيب عنه هذه العاطفة القوية.

(٢)العواطف الأليمة : وهي التي تثير آلام القراء وتشعرهم بآلام الشاعر، وما يعكر صفو حياته في السجن والقيد والظلم،... هذه

([١]) الديوان ٣٣، ٣٢.

العواطف قوية، يجب أن نفرق بين إثارة العواطف الأليمة وتصوير الآلام، فتصوير الآلام يبعث فينا الإشفاق والرحمة، واعتقد أن المعتمد قد أفلح في تصوير آلامه داخل السجن، فبين لنا مواطن البؤس التي عاشها،وبوارق العذاب الذي ذاقها، ومن ذلك قوله ورعيته يودعونه:

خرَجُوا ليسْتَسقُوا، فقلتُ لهــم   دمعي ينوبُ لكم عن الأَنواءِ
قالوا: حقيقٌ،في دموعك مَقْنَعٌ   لكنّها ممـــــــــزوجةٌ بدماءِ([1])

وقوله:

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً   فساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتكَ فـــــي الأطمار جائعةً   يغزلن للـــناسِ لا يملكن قطميرا
بَرَزْن نَحـــــوَك للتسليم خاشعةً   أبصَـــــارُهنَّ حَسيراتٍ مكاسِيراً
يطأن فـــي الطينِ والأقدامُ حافيةٌ   كأنهـــا لــن تطأ مسكاً وكافورا
لا خـــدَّ إلا ويشكو الجَدْبَ ظاهرُه   وليس إلا مـــع الأنفاس مَمْطوراً
أفطرتَ في العيــد لا عادَتْ إساءته   فكـــــان فِطرُك للأكباد تفطيرا
قد كـــان دهركَ إن تأمره ممتثلاً   فردكَ الـــــدهرُ منهياً ومأمورا
مـــــن بات بعدك في مُلك يُسرُّ به   فإنمـــــا باتَ بالأحلام مغرورا([2])

فالعاطفة صادقة لأنها تنبعث عن سبب صحيح غير زائف ولا مصطنع، فتبعث في هذا الشعر قوة خالدة، وتوقظ فينا عاطفة الملك ونعيمه، والسجن وقيوده، وتهيج فينا بواعث العذاب والألم، وتوحي لنا بمدى حزن الشاعر على ملكه الذي اغتصب، وأوضاعه التي تغيرت وتبدلت بحكم نفيه وسجنه، وسيقرأ القارئ هذه القصيدة فتؤثر فيه تأثيراً قوياً، وتبعث فيه الأثر الخالد لمحنته العجيبة الأليمة، وسيقرأ الناس إشعار محنته أكثر ما يقرؤون بقية شعره، لأنها وحي صادق، خرج من القلب، واستقر في الجنان والنفس،ولم يخرج من اللسان فلم يتجاوز الأذان.

---

[1]() الديوان ٨٩.
[2]() الديوان ١٠١، ١٠٠.

هكذا لاحظ النقاد السابقون مدى قوة عاطفة الشاعر، حين أدركوا قوة رثاء نفسه، فعللوا ذلك بأن هذا النوع من العاطفة يبعث فينا المشاركة في أحزانه، لان العاطفة صحيحة سليمة غير سقيمة أو مصطنعة لأنها نشأت عن بواعث حقيقية وذاتية.

ولا نشك أيضا في قوة عاطفة الشاعر لان هذا النص أثر فينا، وبعث شعوراً حياً قوياً، وأيقظ في نفوسا عوامل الأسى والحزن، وأعطانا رؤى جديدة نرى فيها المعتمد وهو في أشد الحاجة من الفاقة على الرغم من أنه كان بيده الملك والمال، فنحس معاناته، فإذا هو غارق في أحزان كثيرة، استطاع بقريحته الشعرية الوقادة أن ينقل هذا الشعور في نفوس قرائه.

والعجيب من أمر المعتمد انه أبقى على قوة العاطفة طول محنته،فهي مستمرة وصادقة من حيث نوعها الحزين، وكل بيت متأثر بما سبق، فلم ينس الشاعر فاقته التي تلبس ثوب العبرة أو الشكوى، وهذا يدل على بقاء العاطفة الحزينة حية طول محنته، فإذا هو ينشد فينا شعوراً أصيلاً، فليس متكلف الحزن أو مصطنع المحنة.

كما أن هذه الأبيات توضح العملية النفسية والتداعي للاستحضار الماضي بكل لذاته ونعيمه، فعكف على نفسه يستنطق منها الحكم والتجارب،ويكفي أن وازن بين صورة فرحه وترحه، وهو عندما يعرض لفرحه يستوعب أجزاءها فيؤثر فيها أشدها تمثيلاً.

وهكذا نرى الشاعر يتألم، وأن الألم ينطقه بما ينظم، وأن ذلك الألم يتدفق في انفجار شديد، خالياً من عواطف الاستسلام ن وهذه العواطف تهز القارئ هزاً عنيفاً لأنها من الحجج التي يلجأ إليها الشاعر للتخفيف عن نفسه،ولتغطية ما أصيب به من مذله.

هذه التجارب الشخصية الفردية لن تبلغ درجة عالية، مهما تفنن الشاعر في صياغتها، إذا قيست بالتجارب العامة التي أحكمت صياغتها، وفي اعتقادي أن تجربة المعتمد بن عباد هي من النوع الفريد، لأن صاحبها تجاوب

معها،فأضفى عليها موسيقى عذبه، وضحت حال صاحبها في الفرح والترح.

سادساً: موسيقى الشاعر:

مما لا شك فيه أن موسيقى الشعر تهيئ الجو وتخلق الاستعداد النفسي لدى المتلقي لاستقبال اهتزازات الشاعر وانفعالاته، فتوقظ العواطف وتنبه الأحاسيس، وتثار كوامن الأشجان والذكريات بما فيها من تجارب متشابعة وما يصحب ذلك من حالات نفسية تتحقق معها أهداف الشاعر في الإيحاء بما تكنه نفسه وتداعبه خواطره (١).

والقارئ لشعر المعتمد يجد أن ثمة تجاوباً بين إيقاعات شعره وموسيقاه،حتى يمكن أن نطلق عليها موسيقى العواطف والخواطر، وتتواءم مع موضوع الشعر الذي يطرقها الشاعر وتتوافق معه، ولا قيمة لعمل شعري دونها، هذه الموسيقى تتفاوت في أنغامها، وتمتاز بجمال الألفاظ وعذوبة الإيقاع،وتقسيم الجمل،وتساوى العبارات، لأن شعره في جملته ترانيم ذاتية يتغنى بها الشاعر في عالمه الخاص، ويتجه بها إلى متلقيه، وليس أدل على ذلك على هذا الجمال الموسيقي من انتشار شعره وليس هذا من قبيل المحنة وإنما من قبيل توقيع الألحان، غير انه لا يخرج على شعر العموديين.

سقى الله صوب القطر أم عُبيدة ... كما قد سَقَت قلبي على حرّه بَرداً
هي الظبي جيداً، والغزالة مقلةًًٌ ... وروض الرُّبا عَرفاً، وغُصن النَّقاقَدا (٢)

فالكلمات لطيفة مأنوسة لها سحر وملاحة، لا يقلان عن سحر الكلمة الموحية القوية، ولا يعزب عنا أن عذوبة الكلمات لا تخلق أسلوبا بديعاً، وإن كانت تضفي عليه رونقاً ورواء وهي ما تسمى الموسيقى الداخلية التي تحكمها قيم صوتية باطنية،وهي ارقى من الموسيقى الخارجية المتمثلة في الوزن والقافية.

---

(١) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية في أصالة الشعر، ١٣٥، د/ عدنان قاسم، الطبعة الأولى ١٩٨٠م،، طبع المنشاة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا

(٢) الديوان ٧.

فإذا قرأت هذين البيتين وجدت فيهما موسيقي ترتاح لها الأذن وينطق بها اللسان، لأن ناظمها ناظم القريحة بالوتر، وإذا أنشد واكب القول بالنغم، وإذا استفاق من سكرة نظمه وإنشاده وجد نفسه غارقاً في جو حافل بأرواح الموسيقيين، ولهات الأوتار المحترق بالمحبين، وكأن ألفاظه وحروفه وقوافيه تتوافق مع بعضها لتحدث نغماً أصيلا، وكأن الشاعر في مهرجان من الإلحان والموسيقى، فيها ارتعاشات عاطفية، وتفاعلات ذات اهتزازات نفسية، ومعادلات معنوية ولفظية، فكم وقعنا على فكرات عميقة تلبس الثوب الجميل، وتحدوها الأنغام العذبة.

وربما كان توحيد النغم في القصيدة الواحدة عن طريق البحر والقافية خير من تجزئته، فيكون مدعاة لضياع وحدتها الموسيقية الكلية، فكثير من الشعر المعاصر يفقد أهميته النغم،لفقدان هذه الوحدة الموسيقية.

وهناك نوع ثان من الموسيقى يمتاز بأصوات ارتكازية تجمع بين النغمات المنخفضة القصيرة المسافات الصوتية، مثل قوله:

وَلَجَّ الفؤاد فما عسى أن أصنـعَا ولقد نُصحتُ، فلم أرِدْ أن أسمعَا
أسفــــي ! أودُّ ولا أوَدُّ،وأغتدي وأروحُ، أحفظُ عهد من قد ضيَّعَا
ما كــــان ظنّي أن أجودَ بمهجتي حُبًّا، وأقنَــــــــعَ بالسلام فأمنعَا
يا هاجرين، قد اسْتَفيتُم،فارِقُوا وهبوا لعثرة عاشــــق لكم ((لَعَا))
ردُّوا، بردّكــم السلام،حُشاشَةً لم تَبق، لولا أنّ فيكــــم مَطمعَا ([1])

وهذه الموسيقى الإيقاعية تناولها الشاعر بإيجاز وهي قليلة في شعره،فقد لوّن شعره بهذا النمط الموسيقي، لتتواءم مع التجربة التي يعيشها، وتتجاوب ألوان نغماتها مع حالات النفس في اهتياجها ن لذلك نرى المسافات الصوتية قصيرة.

وهنالك نوع ثالث وهو الموسيقى الحزينة الطويلة المسافات الصوتية،استعمله وهو في سجن اغمات ليبكي قصوره:

---

[1]() الديوان ٢١، ٢٠.

بكى المباركُ في إثر ابن عباد بكى على إثر غِزلان وآسادِ
بكت ثريّاهُ لاغُمّتْ كواكبها بمثل نَوْءِ الثريّا الرائح الغادي
بكى الوحيدُ،بكى الزّاهِي وقبّتُه والنهرُ والتّاجُ،وكلٌّ ذُلُّهُ بادي
ماءُ السماءِ أفيائه دِررٌ يا لُجَّةً البحرِ دُومي ذاتَ إزيادِ([1])

والقارئ لهذه الأبيات يرى أن موسيقاها تتحدث إلى النفس، برناتها وترادفها وتقاطيعها الصوتية، أو بتعبير آخر موسيقى تتصاعد فيها الأحزان، هادئة تصل الآذان،فالتقطيع الصوتي بارز في الألفاظ وكذلك في القوافي، ففي روي الدال تعطيك مساحة لتفكر في محنة الشاعر، ولكنه استبدل القوة الصوتية بالرخامة المغلفة بالألم، فتأسر الأذن وتغوص إلى الأعماق، على الرغم من سلاستها نراها بطيئة الإيقاع،لتعطي للقارئ فرصة في التفكير ما بين السطور، فالشاعر في اهتياجه وحزنه يكون منخفض الموسيقى، وتكون المسافات الصوتية طويلة لتساير موضوع القصيد وفكرته.

ونخلص من هذا أن موسيقى الشاعر لا تسير في اتجاه واحد؛بل تتغير تبعاً لتنوع الموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر، وتختلف تبعاً للحالة النفسية.

سادساً : **التجربة الشعرية**:

هي الحالة التي تتشبع فيها نفس الشاعر بموضوع من الموضوعات أو مشهد أو فكرة أو مرأى يمتلئ بها وجدانه، فتحفزه إلى التأمل والتفكير والاستغراق بل الاندماج فيها ثم يتهيأ بعدها للإعراب عن مشاهدته ورؤيته ([2]).

وإن كانت التجربة موزعة بين مقومات الفنية ؛إلا أننا نخصها بالذكر لأنها مهمة في العمل الفني، فعندما تقرأ ديوانه تقع في حيرة فهو ليس شاعراً من شعراء البساطة، ولا من شعراء التعقيد، ولا من شعراء الرمز في إبهامهم،، ولا من شعراء التظليل والتلوين والزينة،ولا التجارب التأملية الحسية، ولا التجارب التأملية الاجتماعية.... إنه شاعر يجمع بين الحلم والحقيقة،بين

---

[1]() الديوان ٩٥.
[2]() الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، ١٩.

الفرح والترح، تموج صياغته بين البساطة والتلوين، يغوص من العقل الواعي إلى العقل الباطن للإعراب عن تجاربه إعراباً تأثرياً.

الصبح قد مزَّق ثوب الدجى	**فمزِّق الهمَّ بكفِّي مَهَـــــا**
خُذ باسمِها من ريقها {قهوةً}	**في لون خدّيها تُجلِّي الأسى ([1])**

فترى أن الشاعر بعد أن أتى بمراثي نفسه، وأن سويعات السعادة قليلة،إذ به يغوص عاطفته فيذكر ما به من أوصاب الهوى، وعبر عن نفسه في حيوية وطلاقة، ودرامية وانفعالية، من مقت وكراهية للصبح أو بالأحرى للحب، فهو لم يكتف بتحليل نفسه، بل حلل نفسية الآخرين، مما يكشف عن أعماق العشاق، الذين يسرق منهم أوقات اللذة.

ومن التجارب التصويرية البالغة حد الدقة،تصوير المعتمد لحب زوجته (اعتماد)،وقد تهيأت له التجربة، والامتلاء بها عندما كان قريباً منها وهو في شباب الملك، فرسم لها صورة صوّر فيها حبه،

وتفنن في تصوير آلام البعد والهجر بين المحبين، ولم يفته تزين تجربته بالمشاهد الدالة على ذلك.

أغائبة الشّخص عن ناظـري	وحـــــاضرةً في صميم الفؤادِ
عليك ســـــلامٌ بقدر الشّجـو	ن،ودمع الشُّؤون،وقدر السُّهادِ
تملّكـــتِ منّيَ صَعْبَ المَرا	م،وصادَفْـــتِ وُدِّيَ سَهْلَ القيادِ
مُراديَ لُقيَـــاك في كـلّ حينٍ	فياليتَ أنّــــــيَ أعطي مُرَادي
أقيمي على العهـــد ما بيننا	ولا تَسْتَحيلـــي لِطُـــول البِعَاد
دَسَسْتُ اسمَك الحُلْوَ في طيّه	وألّفت فيه حـــروف ((اعتماد))([2])

هذه التجربة العاطفية تنقل مدى حب المعتمد لاعتماد، وهي في ذاتها قصيدة فنية بصرف النظر عن انفعالاتها المعنوية،فعبر عن تجربته في براعة منقطعة النظير، ونقلها إلينا نقلاً حياً، إنه يمسك باللحظة الجميلة في محراب الحب،

---

[1]() الديوان ١.
[2]() الديوان ٩.

ويثبتها في شعره، علاوة على أنها موفقة الصياغة، فالشعر العظيم الباقي هو الذي يتناول حقيقة من حقائق النفس .

ولعل محنة الشاعر هي أشد وضوحاً لهذه التجربة، مما جعله يتغنى بآمال قد امّحت في تيار الحبس، فأثبت أن الشعر قادر على نقل المشهد المأساوي بكل دقة فبعدما قتل ولديه المأمون والراضي، وقد رأى قُمرية نائحة على سكنها،وأمامها وكرفيه طائران يرددان نغماً،قال:

بكت أن رأت إلفَين ضمَّهمـــا وكرُ ... مساءً، وقد أخنى على إلفها الدَّهر
بكتْ، لم تُرق دمعاً، وأسْبلتُ عَبرةً ... يُقصِّر عنها القَطرُ مهما هَمى القَطُر
ونَاحت وبَاحت، واستراحت بِسّرها ... وكم صخرة في الأرض يجري بها نهرُ
بكت واحداً لم يُشجها غيرُ فَقـــدِهِ ... وأبكي لألافٍ، عـــديدُهم كــــثر
.... (١)

تدل هذه الأبيات أن الشاعر كان نهباً لليأس والعناء، وكاد اليأس يتغلب عليه، فاندفع يعرب عن حالته ويصور ألم الحزن ومفارقة ولديه (المأمون، والراضي)، وأوحى إليه الجو الخانق حوله بتجربة شعرية تصور الوجدان، وقد صاغها في أسلوب صاف وموسيقى حنون، فتواءمت التجربة مع الصياغة المشرقة، فكانت تعبيراً عن حالته النفسية.

ولا يقف الشاعر عند انفعالات التجربة ؛ بل يتناول انفعالات حالته النفسية أو عواطفه وفكرته أو معانيه الذي يُطوّف بها الطائران ليتذكر ولديه، والموسيقى التي تنبض بها الأبيات.

هاتان التجربتان الفنيتان تعبران عن حالة الشاعر في وقت من الأوقات، وتكشف عن سكينة نفسه أمام أيام الفرح، وثورة نفسه إمام أيام الترح، فتهتز نفسه ويثور انفعاله، وهو يرى ولديه، قد تغيبا تحت ركام الاحتلال ، فيلتفت إلى نفسه فتتألم لأثر الفقد، يشبع أذهاننا،ويجعلنا نشاركه في فكرة الحزن.

سابعاً :الوحدة العضوية والموضوعية:

---

(١) الديوان ٦٩.

دعا النقاد أن تكون القصيدة الشعرية حية متماسكة الأجزاء، مترابطة الصور والشعور، بحيث يصبح كل جزء منها بمثابة عضو حي في بنيتها الفنية([1]) فتكون متناسقة الأجزاء، مكتملة البناء بحيث لا يقع بيت في غير موضعه.

ولا ينطبق على شعر المعتمد تعدد الأغراض في القصيدة الواحدة، فقصائده ومقطوعاته لا تتضمن هذا المنهج الذي فرضه ابن قتيبة على الشعراء، على الرغم أنّ الشاعر يسير على نهج الشكل العمودي، فقصائده ومقطوعاته سلسلة من البواعث المنفصلة، والخواطر المتجانسة، واللحن الموسيقي بأنغامه، كل منها تام ومستقل بنفسه، فربما الشاعر لم يطل أبياته لأنه لم يجد المثل النادر إلا بيتا واحداَ، ولم يجد الشعر السائر إلا بيتاً واحداً([2]).

فإذا قرأت بعض شعره لا تستطيع أن تقدم أو تأخر، فمثلاً حينما كانت جيوش المسلمين بالأندلس، مع حليفهم يوسف بن تاشفين، تستعد لخوض معركة الزّلاقة، أمر المعتمد منجمه أبا بكر بن يحيى الخولاني بأخذ طالع الوقت والنظر فيه، فوجده أوفق طالع، فكتب المعتمد إلى يوسف بهذه الأبيات:

غزوٌ عليك مباركٌ   في طيّه الفتـــح القريبْ
لله سيفُك إنــــــه   سخطٌ على دين الصَّليب ([3])

وهذان البيتان قد هيّأ الجو الشعري لنفسه وللقارئ، فأهل الصليب ما خرجوا إلا ليحتلوا بلاد المسلمين والقضاء عليهم،وكذلك كفار مكة ما خرجوا إلا للقضاء على المسلمين فأحيى في أنفسنا ذلك اليوم، وربط الشاعر بين معانيه ومعاني من سبقه.

([1]) الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية في أصالة الشعر، د/عدنان قاسم ١٩٩.

([2]) البيان والتبيين الجاحظ١/٢٠٧المكتبة التجارية الكبرى، سنة ١٩٢٦م.

([3]) الديوان ٥٣.

أما الوحدة الموضوعية فهي متحققة في شعره، سواء أكان في القصائد أو المقطوعات، فهي وحدة الخواطر، وكأنه يجعلها وحدة واحدة لا يتم إلا بتمام المعنى الذي أراده على النحو الذي نحا فيه قصائده ومقطوعاته، تقبل ترابط المعاني لأنها تنبع من الخاطر أو من النفس وتجاربها، وهذا ((الرباط الذي يضم التجربة، والصور، والانفعالات، والموسيقى، والألفاظ في وشاج خفي اثري، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة))(١)

وتأسيساً على ما سبق نرى أن المقطوعة أو القصيدة إذا فقدت الوحدة الموضوعية، تتحول القصيدة إلى ألفاظ مجردة من الخواطر لا حياة فيها، وحدة تتجمع فيها إحساسات الشاعر ومشاهد فرحه وترحهن، وحتى تحقق الوحدة لابد أن يعي التجربة التي يعيشها كاملة.

لما اتّصل بزعانفة الشّعر ومُلحفي أهل الكُدية بطنجة ما صنع المعتمد مع الحصري، تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال :

شُعراءُ طنجة كلـــهم والمغرب	ذهبوا من الإغراب أبعـــد مذهب
سألوا العسير مـــن الأسير وإنّه	بسؤالهم لأحـــقّ منهم فاعجب
لولا الحيـــــاءُ وعزّةٌ لخميّةٌ	طيَّ الحشا لحكاهُمُ في المـــطلبِ
قد كان إن سُئل النّدى يُجزلْ له	نادى الصَّريخُ ببابه اركبْ يركبِ (٢)

فالأبيات تدور حول معنيين الجود والفقر، الجود في أيام الملك، والفقر في أيام السجن،فقارن بينهما، وأن كل فكرة يحاول سبر أغوارها، ولكن يسلط الضوء على معنى الفقر ليظهر الغنى الذي كان فيها الشاعر ملكاً.

ونستتبع وحدة الخواطر الناتجة عن وحدة الإحساس، فنجد وحدة العاطفة والشعور متوفرة في الأبيات، متوفرة، وهذا يعني شيئاً واحداً، هو هيمنة إحساس واحد، أو لحظة شعورية واحدة، أو رؤية نفسية ذات لون محدد من

---

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، مصطفى عبداللطيف السحرتي ٨١، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

(٢) الديوان ٩٢، ٩١.

الدفقات الشعورية التي تتواثب حتى تصل إلى نهاية يطمئن ويرتاح إليها الشاعر.

وربما يكون الطول في الأبيات باعثا على الملل، خاصة إذا أحس الشاعر أنه أمام فكرة يريد أن يستجليها للقارئ، وأن الإطالة تدعو إلى الملل والسّأم.

ونخلص من ذلك أن الوحدة العضوية غير متوفرة الأركان والشروط،أما الوحدة الموضوعية - أقصد القصيدة ذات الموضوع الواحد - فهي متوفرة في شعره،كما نشهد ذلك في قصائده ونتفه الشعرية المتنوعة التي تستجيب لإشراقات الشاعر لبوارقه التي تجلب الألباب.

الخاتمة

من خلال ما دراستنا لشعر المعتمد بن عباد في مشاهد الفرح والترح نثبت النتائج الآتية :

(١)كان ابن عباد شاعرا عبقريا ينظم الشعر، ويجعل حياته كلها قصيدة من قصائد الشعر الترح والفرح , وأن يجعل بلاطه موئل الشعراء.

(٢)كان المعتمد لا يجهل المدى الذي يصل إليه غضب أبيه، فأخذ يرسل قصائده المدحية، يمدح كرمه، ويلتمس عفوه،ويستميل قلبه، ويطلب رضاه، ويبارك انتصاراته،ويؤيد أقواله.

(٣)لم تصطبغ أشعاره بالصبغة الدينية،وظهر أثر ذلك جلياً في إشعاره إذ الطابع العام لشعره يغلب فيه المظهر الملكي على المظهر الديني.

(٤)يتململ المعتمد في حياته تململاً شديداً فيرسلها تأوُّهاً وشكوى، وفرحاً وترحاً، فإذا هي مزيج تذوب فيه العواطف، فتملأ كأساً يعبّ منها ما يشاء، وتكون لنفسه ذكرى وحرقة.

(٥)لم نر يدعو شعبه للالتفاف إلى تجارب الآباء والأجداد في تاريخهم الوطني المملوء بالإرادة الحية لكسر قيود الأسر الذي هو فيه، أو ينتفض شعبه لتحرره من القيد.

(٦)كانت قصائده في الأسر تعزف لحن مجده من فجر انبعاث شمس ملكه،وباغتصاب قصوره وحكمه، لذلك نظر للحياة نظرة فيها ازدواجية، تتلاءم مع حالته الحياتية،ولم يشحذ الهمم في سبيل الخلاص من قيده.

(٧)كان المعتمد ينظر إلى الماضي، ولا ينطلق إلى المستقبل،وهذا الذي ولّد سرمدية الشقاء، ليتسنى له هزم ذاته ولا هزم عدوه، فولّد لديه نوعاً من الاستسلام للمصير،من قِبَل الكثرة المغلوبة على أمره

(٨)ظل المعتمد يعيش أهنا الذكرى للحياة التي عاشها في شبابه وملكه، فكانت تطارده وتذكره بملكه الزائل خاصة وهو مقيد بالأغلال في سجن أغمات.

(٩)كان المعتمد شديد الالتفات إلى الحياة، شديد القوى الحياتية، فعبقريته الخلابة استطاعت أن تحي حياة الفرح والترح، والشباب والربيع والفرح والألم، فاخرج شعره في شكل إنساني، يعمد فيه إلى الذكرى، فيميل إلى إحيائها بتمثيل الماضي تمثيلاً دقيقاً.

(١٠) نلمس بوضوح التصاق المرأة بالطبيعة، ففي الأوصاف نجدها ذات صلة وثيقة بكل مظهر من مظاهر الجمال في الحدائق وجداول الماء، وقلما المعتمد يذكر زهرة جميلة ؛ إلا ويشبهها بثغر، أو خد بورد، أو عين بعون المَهَا..

ثبت بأهم المصادر والمراجع

(١)الأدب الأندلسي، موضوعاته وفنونه، د/ مصطفى الشكعة، طبع دار العلم للملايين، الطبعة السابقة ١٩٩٢م.

(٢)الأصول التراثية في نقد الشعر العربي المعاصر، دراسة نقدية في أصالة الشعر، د/ عدنان قاسم، الطبعة الأولى ١٩٨٠م، طبع المنشاة الشعبية للنشر والتوزيع، ليبيا.

(٣)البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي،تحقيق إ.ليفي بروفنسال، طبع دار الثقافية، بيروت سنة ١٩٦٧م.

(٤)الحلة السبراء، لابن الأبّار، تحقيق د/ حسين مؤنس، الطبعة الأولى، مطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

(٥)ديوان أبي فراس الحمداني، شرح د/ خليل الدويهي،الناشر دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ . ١٩٩٦م.

(٦)ديوان المعتمد بن عباد، ملك اشبيلية، تحقيق د/ حامد عبد المجيد، د/ أحمد أحمد بدوي، راجعه د/ طه حسين، الطبعة الرابعة، طبع دار الكتب والوثائق القومية بالقاهر (١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م)

(٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتري، تحقيق د/ إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٧٩م.

(٨)الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، مصطفى عبد اللطيف السحرتي، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م.

(٩) قلائد العقيان في محاسن الأعيان، الفتح بن خاقان، تحقيق محمد العتابي، طبع المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٦م (نسخة مصورة عن طبعة باريس)

(١٠)الملوك الشعراء، د/ جبرائيل جبور، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى.

(١١) المعتمد بن عباد،بقلم علي أدهم، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي،سلسلة أعلام العرب، طبع
دار مصر للطباعة.
(١٢) المعتمد بن عباد، الملك الشجاع المرزَّأ، د/ عبد الوهاب عزام، طبع دار المعارف بمصر.
(١٢)نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تأليف أحمد بن محمد المقري التلمساني، حققه د/ إحسان عباس، طبع دار صادر، بيروت.
(١٣) وفيات الأعيان وأبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، طبع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٤٨م.

المحتويات

المقدمة...567
التمهيد 570
مشاهد الفرح والترح في شعر المعتمد
مشاهد الفرح 577
أ- في بلاط المعتضد 578
ب - حياة الشباب واللهو.. ....٥٨٦
جـ - غرامياته وتجاربه الشخصية....... ....٥٩٢
١ـاعتماد الروميكية....... ....٥٩٢
١- سحر ٦٠٢
٢- وداد ٦٠٤
٣- جوهرة ٦٠٥
د – أولاد المعتمد....... ....٦٠٨
١- المأمون....... ....٦٠٩
٢ـالراضي بالله ٦١٠
٣- أبو هاشم ٦١٤
هـ - قصور المعتمد بن عباد....... ....٦١٥
و- جوده....... ....٦٢٠
مشاهد الترح ٦٢٢
أـ جوده وهو أسير ٦٣٤
ب - بكاء القصور ٦٣٥
جـ - تجربة الأسر وانعكاسها على أولاده ٦٤٢
١- بثينة بنت المعتمد ٦٤٢
ب - ذكر بعض أولاده ٦٤٣
الفنية في ميزان النقد
ملامح التشكيل الفني ٦٥٥
أولا: اثر الشخصية في الأسلوب ٦٥٥

ثانيا: المعجم الشعري ٦٥٧
ثالثاً: التناص في شعر المعتمد ٦٦٣
رابعاً : الصورة الشعرية ٦٦٩
خامساً : العاطفة ٦٧٥
سادساً: التجربة الشعرية ٦٨١
سابعاً: الوحدة العضوية والموضوعية....... .... ٦٨٣
الخاتمة ٦٨٧
ثبت بأهم المصادر والمراجع....... .... ٦٨٩